محمد قطب

ألوان الطيف

قصص قصيرة

الكتاب:ألوان الطيف (قصص قصيرة)

الكاتب:محمد قطب

الطبعة: **2017**

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



5 ش عبد المنعم سالم - الوحدة العربية - مدكور- الهرم - الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : 35825293 - 35867576 - 35867575

فاكس : 35878373

http://www.apatop.comE-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

قطب، محمد

ألوان الطيف / محمد قطب

– الجيزة –وكالة الصحافة العربية.

.. ص، .. سم.

الترقيم الدولى:**4–299– 446– 977– 978**

أ – العنوانرقم الإيداع :**5481 / 2017**

ألوان الطيف

قصص قصيرة



أطياف

- الطيف.
- النار.
- النداء.
- القمر.
- الخلطة.
- الحقيبة.
- مداهمة.

الطيف

ما الذي أتى به فاقتحمني وسكن عقلي ؟!

تعجبتُ أن يَرد على الخاطر ويُلح بعْد غيبة طويلة من البُعد والجفاء ...

.. لم يكن غريبًا، فهو جدِّي لأمي، ومنذ أن ماتت أمي وأنا بعيد .. لكنني أذكره وأستعيد حكاياته مع جدتي حين كانت تناكفه أو تستعصي عليه ...

– كان أبي يضحك، وأنا أضحك حين يضحك.

.. وأثار أبي جدي فراح يحكي ويقول ..

مرضتُ يا شيخ عليّ، واحتجتُ إلى شراب ساخن فصنعتْه ..

.. مدَّ يده، وتهدّل كُمّ جلبابه وأشار إليها .. شكرتُها، لكن جسدي لا أدري ما حلّ به، كأن منشارًا يروح ويجيء فيه .. وافاجأ به ينظر إلى أبي، ويحتدّ ويقول ..

– أتتحمل المنشار في بدنك ؟

وينْفي أبي أن يتحمَّل المنشار في بدنه.

وأنا أعْلو بصوْتي زاعقًا وأقول

- ولا عنترة نفسه.

ويضْحك جدي ويقول: قالها الولد، وقلت لها ولا عنترة يتحمل ..

وطلبتُ منها أن تدْعك جسدي بالدِّهان الذي أتيتَ به حين حججتَ ... ويلتفتُ إلى أبي ويقول: أتذكر ؟ .. ويحرك أبي رأسه ويقول: نعم.

وينظر إلى أبي ويتعجب.

.. ظلتْ (المرة) تمرخ جسدي ويداها تروحان عليه وتتحسسانه حتى شعرتُ بجلدي يكتوي بالنار، وبيديْها جمرة تحرقني، وقلتُ في نفسي لعلها تحب أن تبلد في حضني ..

واشتد عصبي يا شيخ وحمدتُ الله أن الدم جرى فيه بعد همود .. وطلبتُها فرفضتْ.

ما حكم المرأة التي تعصي زوجها يا شيخ عليّ ؟

ويضحك والدي ويميل نحوها غامزًا ويقول:

- لا تمنعي نفسك عنه ..

ويراوح أبي النظر بينهما ويثبت عينيه عليها ويقول:

- حتى لا تلعنك الملائكة

وكنتُ أضحكُ وأنا أنظر إليهم ..

وكان جدي يطوّح بيده وينْغز أبي بكلْوته ويحتد ..

_ قلْ لها ..

ويشيحُ بوجهه ويتمتم في غضب.

- (مَرَةْ) تكره الخير.

... وكانت جدتي تنظر إلى الأرض وتطوّح بشالها ..

وتسْتحي أن تنظر إلينا.

***

في زيارة للبلد قلتُ أمرُّ عليه ..

في المساء دققتُ الباب، لم أكن متأكدًا من وجوده، لكن الباب فُتح وأطلتْ منه أمرأة .. سألت عنّي، فأخبرتُها، فتعجبتْ، وتنحَّتْ .. ودخلتُ ..

كان مضطجعًا على فراشه، ألقيتُ التحية فردّ ثم اعتدل في جلسته وحدَّق فيّ، زرَّ عينيه بقوة ومصَّ شفتيه، أمال رأسه تجاه المرأة ..

فقالت وهي تضع يدها على صدرها: ابن المرحومة.

عقص حاجبيه وبدا كأنه أُخِذ، فمدّ يده، سلمتُ عليه وقبَّلتُ يده.

- من ذكَّرك بي ؟
- أنت .. أم أنك تنسى.

نظر إلى المرأة وأومأ .. فمضتْ ..

ضحك لي، وبدا أنه يسخر مني، ويعتبرني غافلًا، فكيف يذكرني بنفسه وهو البعيد، وبيننا قطيعة دامت سنين طويلة منذ أن توفيت المرحومة.

قلت ممازحًا:

- وجدتُك تخرج من رأسي وتقول جدّك يحب رؤيتك .. وتغيْرت ملامحه إليّ ونظر في دهشة وقال مستنْكرًا.
- أنا !

***

كانتْ فتراتُ الصمت تطول، فلم يكن هناك ما يُقال، اجتاحني شعور بالحنين إليه، هو رائحة الأم التي مضتْ وأنا في السادسة.

وضعتْ المرأة صينية الشاي، عليها براد وكوبان، وعود نعناع أخضر.

أشار جدّي إليّ فصببتُ الشاي، رفع رأسه وقال مبتسمًا

- النعناع لي

فرك ركبته ورنا: - تحب الشاي بالنعناع

–   لأ ..

مدّ ساقه وحرك قدمه: – كأبيك.

أشار إليها وقال ضاحكًا:

–   جدَّتُك .. بالوكالة

تملَّيتُ فيها وأمعنتُ .. البدن مشدود يوحي بالعافية، يغمره ثوب نظيف ومنقوش، والوجه رائق ينْبئُ عن طيبة، أصابعها ممتلئة وأظافرها ملونة، اللون قمحي فاتح، وعيناها واسعتان ورائقتان .. يقمطُ شعرها منْديلٌ (بترْتر) أحمر تفلتُ منه خصلة شعر سوداء لامعة كأنها مدهونة لتوّها، .. وطوق جلبابها واسع يكشف عن صدر مكتنز .. وطرحتها خفيفة ومزركشة ..

سحبت عيني، وحدست أنها على أعتاب الأربعين .. وكان جدي يقترب من الثمانين.

مال برأسه نحوي وقال وهو يجوس بإصبعه في لحيته البيضاء المخضَّبة ..

–   زوجتي من خمس سنوات.

ضحكتُ وأنا أدير عينيَّ بينهما باهتمام ..

–   أخشى يا جدّي أن تظلمها

ردتْ بعفوية وبسمة رائقة تفرش وجهها

– جدّك .. شباب

كتمتُ ضحكتي ولمحت نظرة رضا تفيض من عينيه.

.. دارتْ بعينيها بيننا ثم اقتعدت مقعدًا واطئًا فبدا جسمها – والثوب يقيّده – مزمومًا ومتداخلًا وواشيًا بثرائه.

راق لجدي منظرها وهو يرمقها ويحبس فرحته بها .. وأدار وجهه كله لي وقال وتنهيدة ساخنة تخرج منه.

– هكذا رأيتها .. أول مرة.

***

.. كنتُ اهّيَّأ للنوم قبل الفجر بساعة ..

قلتُ أريح الجسد قبل يقظة الفجر .. هكذا تعوَّدتُ ..

كانت جدتك فارقتني منذ ست سنوات، وانشغل (العيال) بنسوانهم وأولادهم .. والوحدة الطويلة تصاحبني حتى كادت تأخذ عقلي ..

.. وأنا بيْن اليقظة والمنام .. رأيتُه ..

كان طيفٌ يعبر فضاء الغرفة العُلوية مكانَ نومي، أغمضتُ عينيَّ خوفًا .. وبلغ الفزع مداه حين لمحته يمدُّ يدَه ويفتح النافذة ويمرق.

تعوذتُ بالله من الشيطان الرجيم، ومن الأرواح الشريرة، ومن سكان الأرض السابعة.

.. تكرّر الأمر حتى جاءت ليلة طال الأرق فيها .. ووجدتُ الطيف قابعًا في الركن على هيئة امرأة سافرة، تعرفُ أنني على دراية بآلاعيب "السُّفليِّين" .. راجعت نفسي وقلتُ: منْ يطمع فيّ ؟ أو يقصد إيذائي .. لا أحد، فأنا كما قال لك أبوك: مبرّأٌ من الهوى ..

وقلتُ في نفسي: من الواجب أن أقوم لها ..

.. فلمَّا تقدمتُ خطوةً نهضتْ في خفة كضوء مارق ..

كانت هيئتها كأحسن ما تكون هيئة !..

مددتُ يدي، فجفلتُ وراحتْ تخطو، وتدعوني بعينها.

.. فتحتُ الباب فمضيتُ وراءها ..

خضتُ دروبًا، وأزقةً، وحواري، حتى وجدتُني أمام مبني من غرفة واحدة، صغيرة، تُطل على براح واسع، لا يحدُّه حدّ .. وأنا أراها تمضي وفوق رأسها دخان أشهب كأنّه غمامة تضيء.

.. دخلتْ، فدخلتُ.

وجدتُ امرأة جالسةً، تحيط ثوبها على ضوء لمبة شحيح ..

حين رأتْني ابتسمت .. تركتْ ما بيدها وأقبلتْ، عيناها تضجان بالفرحة.

.. راح الطيف يدور في المكان ثم يتوقف بجانبي، ويتأملني، ويتباسم لي، ويشير ويقول:

- تلك زوجتك.

.. وكمنْ يخرج من دوامة عاتية نفض جدي رأسه، وربت على صدره، وخرج منه نفس عميق صحبتْه تنهيده حارة، وراح ينظر إليها في قعدهًا ويتباسم ..

- وكانت زوجتي.

***

ظللتُ أرنو إليه متعجبًا مما يحكي .. ثم نهضتُ.

سلمتُ عليه فشدني إلى صدره واحتضني وراح يتشممني .. لمحتُها تلومه بأصابعها وعينيها .. حين ارتخت يداه عن بدني حكى لنا أن رائحة ابنته – أمي – هبتْ فجأة، وأنَّها مهما بعُدتْ لا يخطئ عبقها أبدًا ..

وخرجتُ ..

درتُ بعينيَّ في المكان، كان الظلام لايزال خفيفًا .. ولمحتُه يعبر، كان الطيف يشير إليّ، ويدعوني، ويبتسم، ويرفّ ..

وكنتُ أخلع قدميّ عن وجه الأرض .. وأمضي وراءه إلى الخلاء.

النار

□

في الظهيرة ذهبْن إليها .. هكذا تعودْن.

تظل بمفردها في البيت بعْد أن يخرج الزوج لعمله .. تنتظر حضورهن.

تأخذهن واحدة، واحدة وترصْهن أمامها فيبدون كعقد مكتنز، وتبدو في الوسط كأنها سرة البطن.

غمزت إحداهن وأومأت فطمأنتّها أنه في الخارج.

قالت البيضاء الممتلئة:

- الآن نتكلم ..

كشفت الحاجَّة الغطاء عن طبق ممتلئ بقطع الشيكولاته فامتدت الأيدي.

أمالت البيضاء رأسها وأزاحت شالها .. وصوَّبتْ عينيها نحوها وقالت ..

- رأيت أن نارًا تخرج مني.

ضحكن زاعقات: - من أين بالضبط ؟.

لاكت امرأةٌ قطعة الحلوى، ومسحت شفتيها بلسانها القاني ومالت على كتف جارتها وهمستْ:

- أخافُها في السِّر والعلَن ؟

أزاحت يدها وقالت: – منْ ؟

أسرعتْ وهي ترمق الحاجّة في تودُّد.

- النار

أسدلت الحاجة شالها فانسلَّت خصلة شعر رمادية ..

حدَّجتْ البيضاءَ وأصابعها تلامس شعرها .. وتساءلت: – كان الشرر يتطاير منها ؟ ..

نطقتْ في نبرة زاعقة جعلتهن يُدرْن رءوسهن.

- أبدًا

استعادت هدْأتَها وقالت تحاكي بيدها ..

- كانت تتلوى على نفسها.

بادرت أخرى وهي تنفض يدها وتتأفَّف ..

- جذوةٌ ملتهبة

وغامت عيناها وتمتمت

- حين صحوتُ لم أجده.

ردّدن في أسى:

- لم نجدْه ..

ضحكتْ المرأة التي تجلس آخر الدائرة:

- طار كالعصفور

ودفست يدها في صدر جارتها وهى تقول:

- حلَّق فوقكن .. وطار.

***

.. تفرستْ الحاجّة في وجوههن ..

مدَّتْ يدها إلى البيضاء وأجلستها أمامها ..

- "رَاجْلك" يأتيك ؟ ..

تمتمتْ في تحسُّرٍ:

- نادرًا

قذفتْها زاعقةً كأنه اكتشاف

- إذن هو!

أطحْن بشيلاهن ورحْن يحدقْن ساكنات

رنتْ الحاجة إليهن، لمحن في وجهها ملامح الشفقة، فستَرْنَ عيونَهن عنها ..

– النار كشفتْكُن ..

ضحكت وتابعت :

– تحتجْن إلى المطافئ

ضحكْن، وصخبْن، ورحْن يتمايلْن.

***

كانت الممتلئة تتوارى وهى تشعر بألم يُرهقها .. ويقلقها ..

كادت تسقط فهرعْن إليها وأسندْنها .. وانشغلن بها .. جئن بالماء، والرائحة، وعسل النحل .. شربتْ، ورشفت، وتطيبتْ.

تمتمت وعيناها على الحاجة:

– أنت تعرفين.

قلْن في صوت واحد

– ماذا تخبئين ؟

مدت يدها وفرشت أصابعها فوق بطنها ..

أجفلتْ الحاجة وهى تتمتم:

- لعلّه حدث.
- ما هو ؟
- الحمل

***

فاضت عيناها بالدمع ..

وصَحب العيونَ الذاهلة صمتٌ غويط.

حين أفاقت رأهن صامتات .. تعلم ما يدور في العقول .. " .. هى الأرملة"

فمنْ أين جاء ؟

قالت واحدة تخفف عنها:

- أكان لابد أن تحلمي ؟

غضبت أخرى وزعقت :

- حلْمُك .. الذي جاء به ..

.. تلفتْن مرعوبات إلى الحاجة .. وفاضتْ الممتلئة بتوسُّل ساكن.

حبكت الحاجة شالها .. واستقام جذعها وقالت جذعها وقالت كالنَّا صحة .. وهن يُنصتْن إليها كالغافيات ..

- هى النار ..

إن حَلمتِ بها ..

... رمقتْها الممتلئة .. بامتنان أرجف بدنها "وسال من عينيها ..

***

□النداء

اطفأتْ الأنوار وتركت لمبة صغيرة تكاد لا ترسل ضوءًا، غلب على الحجرة ظلامٌ خفيف، جلستْ على حافة الفراش تتابع في فضاء الحرة الوامضات المارقة من أنواع الشارع ومصابيح السيارات .. وكنتُ أراها تتكئ بفخذها اليمنى على وسادة رمادية بخيوط مذهَّبة.

وجهها يميل إلى اليمين، وعيناها تهوّمان في فراغ لا يُرى ..

قلتُ وأنا أتحسس ببريق العين ملامحها، وامتلاء جسدها

– غِبْتِ طويلًا ..

لم تجبْ، لكنها تنهدتْ فسمعتُ صوتها ساخنًا.

مدتْ يدها، ومسحت شعرها وسوَّته ..

(– يَعْني سألت!؟)

بدا صوتها، عاتبًا، ولائمًا.

كانت تصطحبني فتروق الدنيا، وتتسع السماء ..

في القناطر جمعتْ العصافير من فوق الأغصان وغنتْ لهم .. وحين درنا حول الأهرامات غمستْ الأحجار بحنانها حتى خلتُ الهرم

الصغير يحنُّ لها، ويطأطئ هامته، وفي ردهة القلعة راحت تخطو في إيقاع مملوكي ذكَّرني بجوقة السيد، وخلخال الأميرة.

وكانت تقول لي: – سيدي

وكنت أقول لها: – أميرتي

***

ما الذي جعلها تنْأى فتأخذ معها الشجر والقمر والورود اليانعة ؟!

وأين كانت كل هذا الوقت ؟

أدركتْ أنني مشغول بها فاعتدلتْ.

راحت ترنو في وجهي وتتملَّى .. ثم أوقفتْ عينيها وقالتْ:

– جاءني النداء فخرجتُ.

لعلها تتعمد الغموض، أو لاتريد أن تخبرني ..

.. وكظمتُ غيظي ..

***

كنتُ قد تعودتُ عليها ..

كانت تغيب وتعود أكثر جمالًا ودفْئًا.

هذه المرة طال غيابها .. أتكون قد مرتْ بتجربة لم تكتمل فعادتْ ؟ ..

كانت تغيب وتعود .. فلماذا هذه المرة ؟..

جاءني همسهُا ناشجًا يُرْعش أذني، وينقل تمتمات حارة ..

تُردّد أنها لا تطيق البعد عني، وأن صوتي يأتيها في هزيع الليل وينادي .. يا قمري .. لا تحتجب .. لا تحتجبْ ..

كان جسدها مخمليًا، تمشي كفي عليه فتغوص كما تغوص اليد في وبر ناعم لقطة أليفة مدرَّبة.

- سمعتُكَ تناديني فجئت.

وتبسَّمتْ ..

لاح ثغرها بارقًا، أزاح عتمة الغرفة ..

مددتُ يدي، فمدتْ يدها، .. تشابكتَا.

كانت دافئة، أكاد أشعر بحرارتها تلسعني وبنبضات قلبها وهي تسري في عروقها .. أحس أنها .. تكاد تدْخُلُني ..

تساءلتُ وأنا أرمقها وادعًا

_ كان صوتي واضحًا ؟ ..

دكَّتْ إصبعها في كتفي وقالت وادعةً.

- لا تسخر مني

مدْت ساقها وطوّحتْ به الفراغ .. فدار الهواء دورتيْن، ورفّتْ فراشاتٌ نّطت من عينيها وحطتْ على وجهي ..

.. ارتعشتُ حتى كدتُ انتفض.

***

جاءها النداء والفجر يُطل على الكون.

منْ يقوى على الممانعة ؟..

.. الوجْه الوضيء .. والشال الأبيض .. والمسبحة المعطّرة بالعنّبر، ومبْخرة اللبان والمسْتكة، وفناجين القهوة بالحَبَّهان، وأكواب القرّفة بالزنجبيل .. وليالي الإنشاد، ونهارات الرّكض في أنهار السماء .. وأبراج البن الغامق .. و ..

.. ومائدة السماء تَحملها الملائكة ... و .. و ..

وكانت أنفاسها تتهادى في هدوء منتظم ..

وأنا بثقل ذراعها الحاضنة صدري .. أرخى الُملاءة .. و ..

وأسترها ..

وأحجب عنها .. النداء ..

وأبْتهل ...

□

القمر

□

.. انتفضتْ ..

ما الذي جعلها تنتفض وهَبٌّ واقفة ؟.

ظلتْ تتلفت يمينًا وشمالًا .. وهرعت إلى الدرج تدب فوقه وترتقيه حتى سطح الدار، طافتْ بالمكان ودارتْ، وكانتْ غيمةٌ من الضوء الأشهب تُطلّ عليها، والقمر الذي بدْرًا وقتها، أسقط نوره وراح يناوشها ويبتسم.

.. بدا لها أنه يباغتها ويرشها بزخات من ندى نوره .. فترتجف، تعلو رجفتها في أنين أنثوي مكظوم .. وتدفعه كأنه يودُّ أن يأخذها إلى عرينه.

.. ما الذي يفعله بها ؟ .. يقترب حتى يكاد يحتوي ..

ترعشها ملامستُه، واحتواؤه ..

.. الخدرُ الذي أصابها من أين جاءها ؟

والقمر الذي كان بدرًا تراقص حولها وحجل، أيقظها من سباتها، وارتقى بها .. أيخطفها ؟ أيود أن يعرج بها ؟ هل يقوى ؟ ..

***

النفس المغْلقة تنفتح على آفاق بيضاء مصقولة .. يشع صهدها فيكويها، من أين جاءها الوهج ؟ ... مدتْ ذراعيها وعبّتْ.

أعاقها الثوبُ فخلعتْه، تبدَّتْ كحوريّة تضوى بالنور، وكانت غمامة من صبْوة النار تمسّها، وتلْتطم .. نَفَر صدْرها وهّيأ .. وعندما تماسًّا، سرحْت الشهقة في الفضاء ورفرفتْ.

***

راحتْ تتَّقي الضوء .. وتْأتنس.

خاطبته في همس المحب

– ماذا تريدُ منّي ؟

والقمر الذي كان بدرًا لم يكتف ببسْمته التي أكلت وجْهه ..

.. واجْترأ ..

ناوشها فاتَّقتْه باليد

– ابْعد يدك عنِّي.

لاحتْ ثنايا الوجه وضيئة وبارقة، وخيط نوره .. يأتلق، ظلَّ يراوغها .. حَتى احتوى ..

_ احفظني ..

تمادى في غيّه واتكأ، فجأرت منتشية

– سأشكوك لبنات الجنة.

***

كان الليل يسترها، والقمر يفْرش غيمته ويصبُّ نداه .. وكانت تشهق.

تماسَّتْ السماء بالأرض، وشعرت به يسيل في الغوْر مبهجًا وحانيًا.

.. وأدركت ..

انْفتحت الأرْجاء .. واجترحها .. غلبها الخدر، ولم تشعر به وهو ينسل ..

حين أفاقت لم تجدْه.

انكفأتْ وبكت، ..

واتتْها روحها الغائبة فصكَّتْ وجهها، وبكتْ ..

خبطت صدرها وبكتْ.

دهست صدرها في الحائط الخشن وبكت.

.. والمدْية التي غافلتها واندسَّت شرخت الأمان الذي نسجتْهُ .. ولْول السكون، وطارتْ فراشات النور هاربة.

أخذها الذهول وأسلمها إلى الصمت ..

ظن الأهل أن بها خبلًا، فتوجسوا.

لكن .. منْ يمنع العين أن ترى ؟ والجسد أن يمتلئ ؟

استحكمتْ حولها الحلقة ..

– منْ هو ؟ – ما اسمه ؟ – ابنُ منْ ؟ – من البلد ؟ – غريب عنّا ؟

.. وشحذوا الألسنة .. بلسعة الملام

– أنتِ لا تفارقين الدار ! ..
– من أين جاء إذن ؟
– أيكون الجن خواها خلسة ؟.

والموت طائر يرفرف بخافقين محجوبين ..

قالت امرأة مغلولة: – نجخضها

وقالتْ هى متوسلةً: – لا تجهضوه.

.. حين احكموا الحصار، ورأت أنهم يأخذونها إلى الموت، قالت في سكون هادئ يتربص بها

– أبوه في السما

ظنها الأهل مجنونة وهو يرونها تطوف أرجاء البيت وتردّد

– عملها القمر ونأى

غافلني وهرب

قلت له ابْقَ .. فأبى

وراحوا يحدقون .. ويندهشون

.... القمر الذي كان بدرًا، صادها، وضمَّها للحور العِين.

***

في الصباح لم يجدوها .. لاحظوا بقعة الدم تزهو حمرتها فوقها السطح ..

والسّلّم تعرْج درجاتُه إلى السماء .. وتختفي .. لا تبين

***

الخلطة

توقفت عن الحركة ويدها تقبض على القِدْر ..

اندهشت أن يُدق الباب في هذه الساعة المتأخرة .. وضعتْ القدر على الموقد، وأحكمت ثيابها، ورمتْ بشالها على رأسها، ومضت تفتح الباب.

وجدتْ أمامها رجلًا مكتنزًا، ضخم الجثة، مدوَّر الوجه ..

أسرع قائلًا: – أريد الحاجّة.

ردت في تأنٍّ – أنا الحاجّة.

لاحظتْ عليه ارتباكًا ..

لم يتوقع الرجل أن تكون الحاجة امرأة ذات جمال، وقوام معتدل ..

خمن أنها تتعدى الثلاثين بقليل، طال صمته فكادت تغلق الباب.

أسرع مستنجدًا – الصغير مريض .. ونحتاج إليك.

قالت: – عندك المركز الطبي

قال: – هم دلوني عليك

سألت: – منْ ؟

أجاب: – الجميع

تفرست في الوجه، وتيقَّنتْ أنها لم يسبق لها أن رأته.

– في أيّة ناحية ؟

نطق في لهْوجة: – آخر الشارع.

فتحت عينيها وبان عليها ضِيقٌ ظاهر ..

– أي شارع ؟

نطق في تمهٌّل وهو يستدرُّ حنانًا ظاهرًا ..

– المنحدر من الربْوة إلى وسط البلد.

حدَّجته في إمعان. – البيت بعيد ؟

– قريب

أبقتْه بالخارج واطمأنت على الداخل.

حين خرجت إليه بدا عليها التردد وقالت:

– الوقت متأخر.

وكأنه يتوسل – الولد مريض ونخشى عليه.

ونظر إليها ممتنًا وقال – سلامتك في رقبتي

قالت مستدركة: – لكنني لا أعرفك.

– لكنني أعرفك، وأعرف أمك وأخاك

الذي سافر

وستعودين إلى بيتك آمنة ..

***

استشعرتْ فيه الطيبة، ولمستْ انحياءً يطل من عينيه ..

قاومتْ ترددها .. وعادتْ ترمقه .... ثم أغلقت الباب ومضت معه.

قطعا الطريق الخالي من المارّة .. هو يتقدّم، وهى تتأخر عنه بمقدار خطوتين.

توقف الرجل أمام البيت، شدَّ السَّحَّابة فانفتح الباب، أوصدَه ودخلا.

.. وتقدَّمها إلى الغرفة ..

كان الصغير يرقد فوق الفراش وحوله أهله من النساء، تقدمتْ، ومدّت يدها، ضغطت على الجبهة، وأطلت في عينيه، مسّدتْ شعره، وفركت أصابعه .. و .. و .. طلبت ماءً ساخنًا .. ولبانًا .. وزنجبيلًا، ومقدارًا من عسل النحل .. و .. و .. ومزجت المقادير بنسَبٍ محددة،

تعرفها .. أذابت الخلطة في ماء يغْلي .. حمل البخار المتصاعد رائحة لها نكهة لاذعة .. اقتربت من الصغير .. فتحت فمه، وشجَّعته ..

راح يرتشف في تأفّف .. ظلت تشجعه حتى كاد ينهي المزيج ..

إقتربت منه وراحت تمتم .. كأنها تقرأ .. لفّت ساعدها حول رأسه كأنها تُرقيه، شدت ذراعيه، ودعكت قدميه، وفركتْ أصابعه .... وراحت بإصبعها تمر – في رهافة – على مناطق عصبية في جسده .. حتى أخذته الرجْفة ..

.. أطلت الوجوه .. تنتظر ..

وحملت العيون لهفة على الولد ..

ولاحت العيون لهفة على الولد ..

ولاحت الشفاه همس بالحمد .. حين بدا يفيق من رجفته .. فتح عينيه، وتثاءب، وتمطّى، وابتسم لهم ..

انشرح صدر الرجل وقال في امتنان شديد

– اطلبي ما تريدين

رنت إلى الصغير الذي كاد ينهض من مكانه ويستوي على فراشه

– أتعطيني المقابل

- جهدك لا يقدر
- إذن .. حين يُشفى الصغير ..

.. وأذهلهم أن ينهض الصغير فجأة .. ويمرق خارج الغرفة هيأت نفسها لتعود ..

قبل أن تستدير مدَّ يده وقدّم لها عبوة من زجاج داكن، يحيطها ورقة مرسوم عليها حبيبات سوداء وهلال من عسل يطوّقها ..

نظرت إليه مندهشة، فأخبرها أنها مزيج من حبّة البركة وعسل النحل الجبلي ومسحوق الهيل .. تعجبت أن يطلبوها وعندهم أعشابهم وأدويتهم ..

.. كادت تمتنع .. لكنه ألح.

- هديّة تذكرك بنا ..

قبضت على العبوة .. شعرت بتنميل يسري في جلد الكف والذراع..

خطت بقدميها تجاه الباب .. وخرجت.

فتحتْ الغطاء .. وفاحتْ رائحة زاخمة تغلغلتْ في أنفها ... مدتْ إصبعها.

تذوقت الخليط الذي كانت له لسعة نافذة، شعرت بمسامها تتفتح، وبهالةٍ كالغيمة تنعقد فوقها ..

استدارت، وتسمرتْ قدماها .. وتعجبتْ

لم يكن هناك بيت، ولم يكن هناك رجل ..

كان الفراغ يمتد، والأرض تدور حول نفسها، وتشدها إليها .. فتدور معها .. وتدور.

وكانت نغمات تتقاطع وتصطدم بها

وكانت تدور راقصة .. وغافية

وهالة كالغيمة ينْهلّ قطرها ..

فتروح تغتسل .. وتغتسل .. حتى شف جسمها وأضاء.

***

شاع الأمر بين الناس، فتزاحموا حولها .. علَّهم يظفرون بمسحة من الخلطة المدهشة تضيء أبدانهم المعتمة.

***

الحقيبة

.. لم يكن غريبًا وهو ينهض في حميَّة، ويخلع رداءه ويرمي به، أن يلمح حقيبة سوداء بجوار الفراش الذي نهض منه لتوّه، رنا إليها خطفًا وتصوّر أنها حقيبته التي يستخدمها في عمله .. ويستودعها أوراقه وكتبه، وأدويته التي تلازمه.

.. حين ارتدّ إليه بصره كان الرداء قد اختفى.

انكبّ على أشيائه ولمتْ يداه ما وجدتْه ودستْه في جوف الحقيبة.

لم يع تمامًا ماذا وضع حتى وجد نفسه عاريًا ..

حاول في مجاهدة أن يلبس السراويل القطني الأبيض كي يستر نفسه .. بدا ضيّقًا ..

حاول فاستعصى عليه ..

لمح خيوطًا تنسل منه .. فشدَّ واحدًا فلان في يده وانسلَّ خيطًا واحدًا طويلًا كالحزام وظل يمتد ويتكور.

طوّح بيده فإذا به يلتفّ حول جسده كالقماط، قيَّده وسجن حركته .. ولم يبق حرًا إلا ذراعه اليمنى التي تمسك بطرف الخيط.

تحرك، فعجز، فقفز، ونط.

***

كانت درجات السلم تصل إليه وتسلّم نفسها لقدميه ..

واجه البراح، واكتشف عُريه، فتخفى عن الناس، في رائعة النهار ..

.. تكوَّر على نفسه، يداري أعضاءه، وأهمَّه ما فيه ..

أحزنه أن يرى نفسه في العيون عريان، وخارجًا على العرف، برق في ذهنه الالتهام بالجنون .. فخاف ..

.. وتمنَّى أن يراه ..

تلك هى اللحظة التي يحتاجه فيها ..

منْ يأتي به ليخرجه من نزقه .. ويستره ..

ودار دورةً كاملة.

.. حين علا برأسه وجده أمامه يتيه بنفسه كعادته ..

تمعَّن في ملامحه وتيقَّن.

كان هو – نفسه – منْ صاحبه في سفره منذ عشرين عامًا .. إلى الشاطئ الشرقي.

أزاح طاقيته البيضاء – على غير عادته – حتى بدتْ جبْهته متسعة ولامعة .. عيناه تسددان البصر إلى أعلى شجرة عالية تحوم فوقها وحولها طيور رمادية.

خطر على باله أنه يبتسم، فابتسم لعل البسمة تخايله، وتَهديه إليه، فيعرف أنه – هو – الذي كان معه .. وانتظر أن ينظر إليه .. فلم ينظر.

راح يناظره فرأى الحقيبة في يده .. تعجب أن تكون هى نفسها، لكنه أقنع نفسه بأنها نموذج يتكرر وينتشر.

ظل يدور حوله كأنه يبحث عن شيء.

لعله كان يحتاج إلى ما يستره، فتشت أصابعه في زوايا الحقيبة وبطنها، وامتعض حتى بدا كأنه يلوم نفسه ويندب حظه.

قال في نفسه: شغلك الحزام عن إحضار ما أودعته ..

حاول أن يتذكر .. ماذا وضع فعجز.

أخذ نفسًا عميقًا، شعر بعده بتراخي الخيط .. فهبَّ في قوة، وبدأ يدبُّ عائدًا.

حين جذب الخيط وجده ينسل كحبل مرخيّ، تخلص من طرفه العالق بيده ورمح بعيدًا.

وهو يمضي في هوادة لم يهمه عُريُه، كان حريصًا على أن يأتي بالحقيبة، ويفتحها ويخرج الرداء ويرتديه كي يلحق بالرجل الذي لم يره من زمان طويل.

وعاد لاهثًا ..

قبض عليه بيده، تلفت حوله .. وأحبط.

لم يجد الرجل فغشيه الحزن وتسرب الخيط، وتسلَّل وأحاطه كالحزام.

ظل يؤرجح الحقيبة والناس حوله يتزاحمون .. يترّ منهم عرق غزير .. لم يع سرَّ الزحام الذي بدا كأنه حزام جديد، تصور أنه الحشر، وأنهم ينتظرون الجزاء.

ظل واقفًا يبحث عن ثغرة ينفذ منها علّه يلحق بالرجل، لكنه عجز فلم يلحق به، فأصابه الغم.

***

في الصباح وهو يحتسي قهوته نظرت إليه الجدَّة في إمعان وهو يُنهي حديثه وقالت:

– ألیس هو الرجل الذي مات من عشرين عامًا ؟

– هو نفسه.

زمّ شفتيه ولم يعقب، حدق فيها مندهشًا

- أكنت تنتظر أن يكسوك ويسترك ؟
- وددت لو دعوته .. لكنه ضنْ
- يا ولدي .. ستْر النفس أوْلى ..

تململ وهو ينهي رشفته .. ونهض ..

قرر ألَّا يحكي شيئًا لأحد ..

فهُمْ دائمًا يعكرون صفْو بهجته.

.. ويجهضون فرحته

ونومه الذي كان ثقيلًا، أضحى نزهة، يرتاد أجواءها البهية.

***

مداهمة

تتوالى النقراتُ على الباب

الصوت (واطئ) يأتي من وراء الباب

_ افتحي

.. كانت مُجهدة، وعلى عينيها غشاوة، والصوت المنسرب من الباب يذكِّرها به .. فانفرجت شفتاها خلْسة.

مدت يدها في غفوة وسحبت المزْلاج

دخل، وأغلق الباب، وجلس أمامها.

رجَّت جسدها ورمقتْه وحادثته عن أمه وإخوته ..

طال صمته فطالبتْه أن يتكلم .. أو يفتح الثلاجة ويخرج الطعام إن كان جائعًا .. أو يدخل المطبخ، ويصنع له كوب شاي

ومالت برأسها وقالت:

– انتبه للغاز.

مُنذ أن دخل الفتى في رداء الصمت ..

رنت إليه وأمعنتْ ..

طالبته أن يخرج لسانه ويتكلم .. وأن يبوح بما عنده

– هل أغضبك أبوك ؟

اكتفى بالنظر .. ولم تفُتها الحيْرة

– أمك

تأففتْ .. وطلبت منه أن ينهض ويفعل ما يريد ..

لكنه راح يحّدق فيها ..

كاد قلبه يغوص في جوفه وهو يخبرها أنه لا يقوي على النهوض ..

قدماه تلتصقان بالأرض.

نظرت إليه كأنها تؤنبه وقالت

– انهض .. ولا تتحجج

واضطرب قلبها وكاد يرجُّها فحكمتْه ..

.. عاد قلبها إليها وهى تراه غارقًا في الحيرة. يلاحق عرقه بكفه، خرج صوته مرتعشًا

– ماذا فعلت بي ؟

–   لم تُرد أن تتمادى أو تطيل الموقف .. فهو يدرك أنها تدرك لَمَ جاء ؟

.. لكنها لا تريد له أن يتيقَّن.

ابتسمت وقالت:

–   لا أفعل إلا الخير

وربتْ بكفّها على صدرها

–   أنا حبيبة الله

***

.. حدثته عن وِرْدها الذي تداوم عليه صباح مساء، وقراءة القرآن الذي يؤنسها من الجن والإنس، وأنها حجت بيت الله، واعتمرت ومالُها ليس لها.

.. كزَّ على أسنانه، وهو يتملُّص من قعْدته، ومن قدميه الملتصقتين بالسجادة

–   جئت لآخذ ما عندك .. أو أقتلك لو صرخت.

حدّقت فيه وكبحت .. قلبها المرتجف ..

رأت على وجهه الطفولي حيرةً تتغشَّاه، وخوفًا يفيض دون أن يعي ..

- قلت لك .. مالي ليس لي .. الشقة أمامك ..

خُذ منها ما تحب .. فلماذا القتل ؟

بادرتْ – تدفعها رغبةٌ خائفة .. في أن تبعث إليه برسالة، فقالت له في سكينة مستدعاة، أنها لنْ تبلِّغ عنه، أنها كبيرة السن، وأنها في سن الموت .. فلماذا العجلة ؟ وهو في سن حفيدها .. بل ظنتْه هُو .. ويجب ألا يفعل بنفسه ذلك كله .. وأنه سيشنق لو فعل ..

.. وعلا صوتها في همس مُبين ..

- لن أصرخ، ولن أنادي على أحد، ولن أفتح

لحفيدي الذي سيأتي بعد ثلث ساعة .. ولن

أمنعك من شيء .. خذ ما تحب.

***

راح يردد في هول

- ماذا فعلت بي .. هل قرأت شيئًا قيدني ..

وتحرك لسانه بكلام عن الجن الذي يلجأ إليه البعض من (السُّفليّين) لإلحاق الأذى بالناس.

- دعيهم يتركوني

أفهمته في هدوء ومودَّة أن القرآن أنسيها، والرسول حبيبها والله وكيلها .. فكيف لامرأة مثلها تستعين بالجن.

واستعانت – في نبرة واضحة .. بالله من شيطان الجن والإنس .. حدقّ الفتى فيها .. وظل يحدق ..

فجأة ارتعشت شفتاه، وكاد اللعاب يسيل منه وهو يزحزح قدميه ..

– سأمضي

حرك رأسه وبدا كأنه ينصحها

– لا تفتحي الباب لأحد .. ولاتثقي في احد

فاض قلبها خفية برضا داخلي .. وعرضتْ عليه المال والطعام والثياب .. وما يحب .. ولا يخجل

هبَّ فساعده جسده، ارتفع فآزرتْه القدم التي تحركتْ ..

.. نظر إليها كالممتَنّ.

وقبل أن يمرق توقف لبرهة بدتْ طويلةً عليها ..

حذرها من فتح الباب لمن لا تعرف ..

من يضْمن المرة القادمة .. فقد يأتي ومعه ملك الجن نفسه.

وخطا خطوته ..

أغلق الباب ومضى ..

.. حين تأكدت، لم تبرح مقعدها وأخذها ذهول عميق ..

وارتجتْ باكية

ظلت تبكي حتى راحت في غفوة.

***

أصداء

- مشهد جانبي.
- النذر.
- الوشاح.
- فراولة.
- التسوق.
- جواهرجي.
- طبيب.

مَشْهد جَانبي ..

ذهبتُ إلى الطبيب في عيادته الجديدة بمستشفى خاص، كنتُ قد تعودتُ على عيادته القديمة بميدان الجيزة، وقام بيننا ودٌ لطول تردُّدي عليه، أقلقني خوف غائم من المستشفيات الخاصة، لكنني نحَّيتُ هاجسي ومضيت، كان ثمة لغطٌ لوفاة عدد من المرضى لإهمالٍ جسيمٍ بها، لكنْ لا مفر من الذهاب ما دام طبيبي نقلَ نشاطه إليها.

يُشعرك المبنى – في الحي الراقي – بنوع من الألفة، تنفتح لك الأبواب، ويواجهك البهاء، وتتخايلُ أمام نظافةٌ تبثٌّ روائحها وتزاحمك، تتآلف الوجوه، وتنفرج أساريرُ مَنْ تراهم، كأنك عائدٌ بعد غياب.

تقدمتُ إلى الداخل، وقصدتُ مكتب الاستقبال ..

تساءلتُ في همهمة: – الدكتور موجود ؟

رمقتْني وردتْ في خفوت: – يأتي في الحادية عشرة صباحًا

أدارت معصمها ورنت إلى الساعة ثم أردفت: – تأخرت ..

رفعت رأسها، وأطلت بوجهها الوسيم وابتسمت. أخرجت الأوراق وجهَّزتْ ملفًّا خاصًّا بي، وراحت تسجِّل معي البيانات .. توقفتْ أمام المهنة، اعتدلتْ، واتَّكأت على كوعها، ولامَس طرفُ القلم

شفتيْها المنفرجتين، وبدتْ ساهمة، انفرجتْ ملامح زميلة لها وشاغبتْهَا في حنوٌ وقالت وهي ترمي ببصرها ناحيتي

- إنها تكتب الشعر

مشتْ على وجهي دهشةٌ فرحة جعلتْها تمدُّ رأْسها وتعلُو وتنيم عينيها وتقول:-

- وأغني أيضًا ..

وأنا غائم الرغبة، قلق من مقابلة الطبيب ردَّدتْ في إيقاع مرتبك، كلامًا عن الحمام الذي لا يغادر عشَّه، والأنثى التي تراوغ ذكرها لتلتقط الحبَّ من أعلى الشرفة، والذكر الذي يفشل في حراسة البيض، ويتطلع إلى العيون، والأجنحة، وعيناه ترصدان الرفْرفات، ويحوِّم، وهي الأنثى المنتظرة تخاف دومًا من الرفرفة والنظرة الرانية.

... أشاع قولها في نفسي قدرًا من الراحة، وأثَّر فيَّ أداؤها .. وتبسمتُ، وقلتُ إن صوتها جميل، وشعرها أيضًا .. وزها وجهها بالألق ..

شعرتُ بأن حُسن المعاملة وجمال الأداء يرفِّق القلوب الموجعة ويُبعد عنها القلق والخوف.

وتطلعتْ وهى تمسك بالقلم، لم أتوقف كثيرًا أمام قيمة (الكشف) وبَدا كأنَّما أخذها الحياء فلم تُسْفر عن مطالبتي واكتفتْ بالنظر، أعلم الغُلُو الذي يسُود هذا النوع من المراكز الطبية المتخصصة.

ألمتُ بالمكان الدائري ثم جلستُ على مقعد بالقرب من "الكونتر"، ودارتْ هى – بمقعدها – في دورة كاملة، واتكأتْ بظهرها ثم واجهتني.

البلوزة البيضاء بوردات حمراء تكشف عن مساحة من الصدر، والصدر يعْلو في بزوغ .. البنطلون الجينز يحدد تفاصيله، يكاد يتمزق عند الخصر، حجابها البسيط يُفسح لوجهها مساحة ليتألق، ولشعرها أن ينْسدل خفية.

... دارت عيناها في المكان البهيّ، الوقت يساعدها، فنوبة العمل توشك أن تنتهي، ولا أحد سواي في العيادة ينتظر.

تقاطعتْ ذراعاها فوق صدرها وباغتتني

– كأني رأيتُك من قبل ..

ضحكتُ في صوت ليْن، أدَاعبها.

– لَا حظْر على الأحلام.

كأن عينيها تغرقان وجهي فأسرعتْ تقول:

- الوجْه مألوف

شدتْني دهشتها، وفتحةْ العين التي كشفت عن بياض رائق وقلت مُمْعنًا.

- كوجْهك ..

فاض جسدها على المقعد الدوار وأنا أمعنُ في الوجه، وأحتار في حركتها الدوارة .. لاح الارتياح يتسلل إلى ملامحها، وربتت بأصابعها على الفخذ، وأبعدتْ جهاز التليفون، ولمحتُ سعادة ما تُزاحمها وهى تحادث زميلتها.

لم أحدد سببًا للبهجة، ربما وجدتْ منْ يستمع إليها .. ويُثني عليها.

.. ثمة عامل ذو هندام نظيف يتطلع إليها في إلحاح، على وجهه غرابة ودهشة كالاسْتنكار .. استند إلى الجدار وانتظر، ظل يبدل ساقية حتى نظرتْ إليه.

أمرته أن يحضر الملف من الدور الثاني .. فمضى ممتعضًا.

.. ابتسمت لزميلتها التي انشغلت بنداءٍ لها .. وأمالتْ رأسها وقالت في نغمة هامسة كأنها تُنشد شعرًا ..

- أنت من الريف ؟

أومأتُ برأسي والتزمتُ السكون، فلوحة الإعلانات تطالب به.

راحت شفتاها تَنْفرجان وتحكي .. فهي تحب الريف، وتُغرم بالخضْرَة، وتعشق شجر الكافور الذي يضْرب بجذره في الأرض، ويضْعفها لحدِّ الخدر رائحةُ الليمون، وتذهل حين تستحم بضوء الشفق، والسماء مُحْمَّرَّة تسْتعد لاسْتقبال شمسها، وكنِّها في ستْرها ..

نترتُ نفسي وأنا ألهج

– تتحدثين شعرًا

طالها الحياء فتوردتْ لكنها تابعتْ ..

– القمر في الريف يدْهشني .. يظل يترصَّدها ليمنع حركتها وضحكت زاعقة:– "مذكَّر بأه"

ثم عاودها خجل خفيف وهى تتحدث عن الرجْفة التي ترجُّها وهى ترى الأفق يُمدُّ لها يده ويسحبها في رفق.

أتنهَّد وأقول مداعبًا في مسرّة حقيقية ..

– تلك أحوال الشعراء ..

كانت زميلتها تتكئ بمرفقها وتريح رأسها، وذقْنها على راحة اليد، وألمح بسمة على شفتين مزمُومتين .. وهى تقول:

– صدَّقْتَني ..

قلتُ مأخوذًا بالحالة التي أصبحتْ عليها ..

- فيك روح الشعر وجماه

استدارتْ فجأة، ولامست يدُها صفحة خدّها وتنهدتْ ..

- كسَرني الأولاد

لمحتُ حزنًا شفيفًا يطلُّ من عينيها الساهمتْين فقلت ألاطفها ..

- من يُصدق أنك أم ؟.
- ثلاثة ..

مست بأناملها حافَّة الحجاب، وأخفت خصلة شعرٍ رهيفة بزمَّة محْكمة .. وكشفت عن عمرها، وأنا مندهش وهى تسْرد أسماء الأولاد، وأعمارهم وأتعجب للبطن الضَّامرة التي أنجبتْ.

... مدتْ يدها والتقطت سماعة الهاتف.

جاء ردُّها مُوجزًا، ثمة ضيق ما يُلوِّن حديثها وهى تردِّد إجابات لأسئلة مجهولة .. نعم يا ماما، عندنا ضيوف !، الساعة خامسة، يتناولون الغذاء !، سأتصرف..

قالت في تسارع صوتي لم ألاحقه كمنْ يريد أن يتخلَّص من شيء ما ..

- أمي مغرمة باستضافة شلتها بنادي المسنين

في الأسبوع الأول من كل شهر .. وهن أيضًا

يفْعلن ذلك .. وتظل تلاحقني .. وأنا كما ترى ..

نفضتْ يدها، وزمَّت شفتيها ..

خطت زميلتُها خطوتين، وحركت ذراعها، واستندتْ إلى الجدار .. كانت عيناها تدوران وتحطان عليها، ثم اعتدلتْ، وزفرتْ آهةَ الأخرى كوب شاي .. وضع الملف، ومضى بكُوبه ..

... دسَّتْ أصابعها بالملف، وأخرجت ورقة، ورنتْ إليّ .. ثنتْ زميلتها ساقها وحدَّقت.

فردت الورقة وراوحتْ النظر بيني وبينها، أملتُ رأسي ونظرتُ.

كانت الكتابة على أسطر، وكل سطر على شطرين، شغلتْ الأسطر منتصف الصفحة، فهمتُ أنها قصيدة شعرية ..

تُلامس كفُّها في رهافة وجْهَ الورقة وقدّمتْها لي ..

- تنشرها ؟

ضحكتُ وقلت: – أنشرها

قالتْ في جدٍّ طارئ لم ألحظه من قبل ..

- بمكافأة ؟
- بمكافأة

غزاها اهتمام واضح، فاستقام صدْرها وقالت ..

- أعطني المكافأة .. ثم اصرفها أنت ..

وضحكت زاعقةً وهى ترنو إلى زميلتها التي أنزلتْ ساقها، ومدتْ رأسها، وأرسلت عينيها تتابعان الموقف.

قلت في صوت واهن كأنني خجول

- مكافأة القصيدة قليلة .. لا تزيد على العشرين ..

لحتُ زميلتها تخْبط برمشها، وتضْغط شفتيها وتومئ برأسها ..

.. وفوجئت بها تقول:

- عشرين ! ع البركة ..

وتابعتْ يدي وأنا أسحب حافظتي، وبدتْ كأنما تتعجَّلني ..

أوقعتْني رنة الجرس من عيادة الطبيب في عجلة، فاختطفتُ ورقة مالية وقدمتُها لها، رمقتْها، مدتْ يدها واختطفتْها، ودستْها في صدرها، ونهضتْ .. وأشارت إلى الباب ..

صحبتْني زميلتها إلى حجرة الطبيب ..

وحين خرجتُ، وفي يدي تذكرة الطبيب .. اقتحمتْني زميلتها وهى تقول:

- على فكرة .. أنا أكتب القصة

رفعتْ صوتها قليلًا وهمستْ في ودّ: - المرة القادمة أُريها لك ..

رددتُ في إيقاع مرتجف دون النظر إليها، وأنا غائم النفس، قلق من مقابلة الطبيب ..

- المرة القادمة ..

***

النَّذر

وجد الباب مُواربًا، توقَّف، لم يسمع صوتًا، مدَّ رأسه وانتظر، أمال وجهه وانتظر، رآها تقتعد الكنبة وأمامها مِنضَدة صغيرة عليها طبق ملّون وأصابعها تقطع من رغيف بيدها.

ألقى التحية فرفعت رأسها وابتسمت

- وصلت بسرعة

جلس على الكنبة وأسند ظهره

- جئتَ بالتاكسي!

أمأ برأسه .. كان قَدْ هاتَفها من ساعتين.

قطعتْ رغيفًا من الخبز نصفين وقالتْ رانية ..

- "تأكل" معي

قال خطْفًا كأنما يُبعدها عن الاسترسال

- شكرًا ..
- جبنة استانبولي

لمحها وهي تحز الجبن بالسكين.

- أحب "القريش" بزيت الزيتون

ابتسمتْ وهى تضع إصبعها في فمها

- هيَّ "القريش" أكْلة

.. كانت تجلس في الصالة وخلفها صورة لوجه نسائي جميل .. وثمة مقاعد متناثرة في نظام .. و"أرضيّة" الشقة نظفية، تغطيها بُسُطٌ صغيرة ..

- تأكلين .. والباب موارب!

ضحكتْ فتناثر الفتات:

- انتظر زوج الشغالة

ملأت نصف الرغيف بالجبن ومدَّت يدها

- كُلْ
- شكرًا ..

الصالة مربَّعة .. في الباب المواجه لمح التليفزيون ينقل مباراة في كُرَة القدم، رأى الكرة تتقافز بين الأرجل .. وصوت المعلق يصرخ ..

.. قال وهو يتطلع إليها

- أكملي أكْلك .. سأشاهد المباراة

سمعها وهى تزوم في ضيق

– أرسلته للسوق .. البنت ستصل غدًا ..

.. دخلتُ الحجرة ..

كانت ترتدي "روبًا" أسود فوق ثوب مطرّز بخيوط حمراء .. شعرها ملموم ومحكوم بمنديل أبيض ..

سمع صوتًا فحدس أنه زوج الشغالة ..

دخل عليه، وسلّم، وراحا يتحدثان في أمور الرياضة والأندية وركلات الترجيح التي تطل من التليفزيون.

قدمتْ مشروبًا وجلستْ .. بدا الجسد مكتنزًا، وطيَّاته واضحة لم يفلح الثوب في سترها ..

التقطت تفاحة من طبق أمامها .. كفَّها ممتلئة وأصابعها طويلة، وبشرتها بيضاء ..

تملتْه وهو يحدق في التليفزيون ونطقت في زعقة

– أمْجد!

خلع بصره من الشاشة، وأدار رأسه وانتظر.

أشارت إليه كأنها تتهلّل ..

- قل له ما حدث أمس في السيدة ..

.. كان يرتدي قميصًا نظيفًا، وخاتم الزواج يضوي في إصبعه، والبنطلون داكن، ومكوي .. والجورب بلوْنه ومقطوع عند الإصبع.

- أوووه .. كانت ليلة

.. كان قد كلَّفها بعمل خيري في رحاب السيدة نفيسة .. نَذْرًا لله.

فالمريدون يتزايدون، والطامعون في بركتها يترددون .. والأيادي لا تُرد.

- فرح الناس بالأكياس.

تركتْ ما بيدها .. وقالت في زهو

- في كل كيس فطيرة، وبرتقالة وبيضة مسلوقة.

وضحكت .. وتمايلتْ، وتملت زوج الخادمة ..

- "كَلُوا" صوابعْهم

وأشارت إليه فبادر يقول في تسارع ..

- مَدُّوا الأيادي وحركوا ألسنتهم بالدعاء.

قاطعتْه – ظلوا يدعون للابنة بالصحة والعافية

ورمقتْه – وكنت أردد وراءهم الدعاء ليعم الثواب

وضحكت وأشارتْ إلى أمجد فخلع عينيه من التلفزيون وأقدام اللاعبين.

- ظلوا يدعون، حتى ابتعدنا .. وقالوا موعدنا الخميس ..

.. أخرج محفظته .. فرمقتْه خلسة ..

كان المبلغ الذي قررتْه نظير ما قدمت به مائة وخمسين جنيهًا .. نهضتْ من مقعدها ووقفت بينه وبين زوج الخادمة .. حجبت عنه يدها التي امتدت ..

ودستْ المبلغ في صدرها ..

طال الصمت .. فنهض .. مستأذنًا ..

مدتْ يدها .. ومدَّ يده ..

وكان أمجد لا يزال يحدق في التليفزيون بحثًا عن الكرة ..

الوشاح

.. كان الميدان أمام مسجد السلطان يرْفل أضواء خافتة، والبقعة الخضراء في الوسط مُسيَّجة بأعمدة خضراء وصفراء تُغري الجسد المنهك براحة مختلسة وباستقبال نسائم الليل الرطبة ..

- تناثر الحضور في دائرة الخضرة.

وفي الزوايا – على اليمين واليسار – ثنائيات تنشغل بنفسها، وبالهوى الكامن فيها ..

.. خطفتْ يده وعبرتْ ..

توقفتْ قليلًا، ثم اتكأت على ذراعه وهى تصعد الدرج .. اختارت مكانًا مستورًا بسعف نخلة صغيرة .. أدارت ظهرها ولاحقت عيناها الطريق ..

أرجحتْ ساقيها حتى كاد حذاؤها يسقط، وازدهي وجهها بفرح طفُولي، وتمايل جسدها – المكتنز – في حركات متناغمة ..

.. خشى أن تُلفت الأنظار فضغط على يدها، أطبقت جفْنيها وصدرت منها آهةً طويلة، ودارت برأسها، وتمهلت عند الثنائيات وحدَّقتْ.

***

.. باغتها فجأة فارتجَّتْ

كان بائع (النصبة) يقف على رأسها كأنه يقصدها .. رمقها وظل يردِّد (سخن، بارد).

تلفتتْ إليه تستشيرهُ، فزمّ شفتيهِ وسكت.

صرفتْ الفتى إلى حين، لكنه لَبِد، فجأَر صوتها زاعقًا .. انحنى ومضى.

أوْمأ برأسه، فردَّدت في غضب

- لا أحب الإلحاح

خبطت بحذائها السور، وتأففت

- ولا مَنْ يفرض نفسه

أدامت النظر إليه، تفرست في ملامحه وأسفٌ يطل من عينيها

- يحْسبنا حبيبيْن

وزفرت - كأنها تتحسر - وهى تخطف هيئتَه خطفًا ..

- لا يعرف أننا فوق الستين.

رآها فرصة، ففك شفتيه، وقال متهلِّلًا

- أنت لا تكبرين

اعتدلت وراحت تضرب حجر السور، ثم استندتْ على ذراعها ومالت عليه بثقل جسدها .. وقفزت إلى أسفل.

***

... سارا معًا

تسللتْ يدها إلى ذراعه وتأبطته.

كان الطريق شحيح الضوء، وينحدر ويدور مع سور الجامع ..

.. تحدثت عن سكان الحي الذين يعرفونها، والبيت الذي يقع بعد (النَّزلة) في الشارع المزدحم

ضغطت على ذراعه وتريثتْ ..

- ماذا يقولون .. لو رأونا ؟.

.. ودَّ لو تحدَّث، لكنها أسرعت ونغزته بكوعها وقالت

- حبيِّبَة ..

وزعق صوتها ضاحكًا ..

تباهتْ في مشيتها وزهت.

كان جسدها يثقل عليه في حركته .. حاول أن يبعد جسده، أو يفلت ذراعه، لكنها أحكمت ضغطتها، وشدته في هرولة حتى كاد ينكفئ.

نتش ذراعه وأشار إلى المارة ..

.. حين دلفت إلى الشارع المزدحم الغارق في الأضواء .. تمهلتْ وأحكمت هندامها وتقدمتْه ..

.. ابتهجت وهى تقف أمام محل الكبدة

رمقته ودخلت.

تهلَّل البائع واستقبلها بحفاوة

ظن أنه يعرفها فبيتُها قريب ..

.. طلبت نصف كيلو، وعددًا من الأرغفة، وأوصته بالسلاطات كبرتْ الدهشة في وجهه ..

حين إنتهى البائع كان عليه أن يتقدم

أخرج المبلغ كان عليه أن يتقدم

أخرج المبلغ الذي حدَّده، ودفع إكرامية له ..

.. وجاءه هاجسٌ أن تدعوه إلى مشاركتها، فهى تعيش بمفردها، لكنه فوجئ بها – وهى تقبض على لفَّة الطعام – تقول

- البيت على الناصية (الجيّة)

واجهته في وداعة، ثم بسطت كفّها وسلمت

- كلمني غدًا

لزم مكانه عند المنحنى .. وأرسل عينيه وراءها

.. بعد البيت الثالث على اليسار، توقفت أمام (برحة) صغيرة تؤدي إلى مقْهى .. رأى رءوسًا صغيرة تتزاحم وتختلط ..

ورآها تلوِّح بكيس الطعام ..

ورآها تلج المقهى وتحمل منضدة صغيرة

ورآها تضع الطعام ..

ورأى الأصابع تلقطه وتدفعه إلى الأفواه الفاغرة

ورآها سعيدة وهى تربت عليهم، وتستمهلهم

وكانت عيناه غائمتين، ترشح غبطة .. وهو يراهم سعداء

ولاحت له الأصابع المفرودة تنسج وشاحًا أبيض تزينه فراشات رمادية، والوجوه الفرحة تعلو به كغيمة تظلهم.

فَرَاولة

.. جلسا في المكان الذي تعودا عليه .. كانت الأشجار داكنة ورشات الضوء الخافت تباغتها وتتخللها .. وثمة ظلمة تسري خافتة ..

ولاح المكان واشيًا براحة مختلسة.

..اتكأتْ على المقعد الخشبي وطلبتْ شايًا وزجاجة مياه

دارتْ برأسها ومسحتْ بعينيها المكان وبدت كأنها تحتج

– الجنينية قريبة من البيت.

انفرجت شفتاه وظل صامتًا.

مالت بجسدها ناحيته ورقت ضحكتها

– أخاف أن يرانا أحد.

***

.. عدلَّت من ياقة الجاكيت ..

كان اللون المائل إلى الدُّكنة يبرز جمالها، ويضيء وجهها الأبيض المكتنز.

مسكت بزجاجة المياه وملّست عليها

- أخبِرْني بموعد اللقاء قبلها بيوم

أبدى دهشة ممطوطة كأنه يعترض.

فتحت غطاء الزجاجة وشربت، أغلقتها ثم وضعتها في حقيبة يدها.

أحكمت غلقها ..

نظر إليها ولم يعلّق.

- البيت لا يفرغ من الزوّار.

غررتْ إصبعها في فخذه وضحكت

- بيت العيلة

.. كانت ضحكتها زاعقة، فوضعت يدها على فمها وتلفتتْ

- جاءت خالتي بزوج لي! ورفضت ..

كتمت ضحكتها وصدرها يرتجّ ..

- اشترط أن أرتدي العباءة

مدتْ يدها وشدتْ فتحة قميصه

- وأزمُ البيت.

راحت تطوف بعينيها المكان، وتدير رأسها .. مسكت بإصبيعها فتْلة عبوة الشاي وغمستها بالكوب ثم طوَّحت بها ..

- طبعًا أرفضه .. لا أحب (الحبسة).

.. ولفت ذراعيها على صدرها.

***

.. أغمضتْ عينيها .. وظلت عيناه تراوحان وجهها.

لم يُرد أن يشغلها .. تركها .. وظل يرمقها.

تحرك الجفن ولمحتْه ينظر إليها .. كأنما ينتظر.

.. أشارات إلى ذؤابات الشجر تتداخل في الضوء الخافت وتصنع أشكالًا ..

تمتمتْ في خَطْفة صوْت مزهوة ..

- كأنها تشير إليّ ..

مالت برأسها وفردت ذراعيها

- لو كنا بالنهار لقطفتُ وردتين.
- تحبِّين الورود

جفلتْ وتراجعتْ، ونظرت إلى ثوبها، ورنت إليه..

كانت ورْداتٌ تتداخل وتتسرب ألوانها في النسيج .. مسَّتها بكفها

- لو زرتني لوجدت الكثير

.. لملمت بأناملها وردةً تتبدىّ في ثوبها وحدقت فيه ..

- خذها

وراحت تضحك ..

***

.. شدته من يده .. عندما خرجا ..

كان الشارع غاصًا، والناس يتزاحمون .. ويتصادمون .. بجانب السور وأمام الميدان يعرض الباعة بضائعهم .. وتتعالى الأصوات وتختلط ..

.. توقفت أمام صينية متسعة الدائرة، ممتلئة بالفراولة، تزهو بحُمرتها، ولمعانها الذي يعكس ضيَّ الشارع.

تلكأتْ .. تركت كفه ووقفتْ .. مدت يدها وانتقتْ حبات زاهية

- نصف كيلو

ارتبك .. هو الذي لا يفهم في هذه الأمور تقدَّم وطلب من البائعة أن تزن 2 كيلو

ابتسمت له وقالت فرحة

- ضمنتْ الحاجّة أن تأكل وتشبع

حملت عيناه استفهامًا فبادرتْ قائلةً

- على السطح .. وحيدة .. تستحق الصدقة ..

.. قبض على الكيس، واستندت – هى – على حاجز حجري ..

أخرجت منديلًا من الورق ومسحت حبات من الفراولة، وراحت تلوكها في تلذذ واضح .. ورمقتْه ممْتنة

- الفراولة حلوة ..

.. وبدت سعيدة .. وراحت تخطر في مشيتها ..

نسيت الناس، وازدحام الشارع، وسرعة السيارات ..

وهو يهرول وراءها ويشدها .. يبعدها عن العربات .. والسائقون يلقون بالسِّباب واللعنات، ويبصقون ..

وفلتت من يده

راحت تتحرك مبتعدة .. تقبض على الكيس .. وتقفز في هرولة .. لم تتلفتْ وراءها ..

وكان يقف مبهوتًا .. كأنه لا شيء ..

استدار ومضى.

***

التسوُق

بدت مفتونةً وهى ترى الناس يسرعون ويتداخلون، والعربات تزحم الشارع وتُرعب القلوب، وقفتْ على الرصيف تتحين الفرصة للعبور، بالقرب منها كانت صاحبتها هى الأخرى تنتظر، لمحتْها فهرعت إليها.

قبضتْ على ذراعها وعبرتا ..

جرى الحديث مقتضبًا ..

قالت: – لم أرك من فترة

ردت صاحبتها: – النزول أصبح عبئًا

شدَّهَا من يدها حتى كادتْ تتعثّر في حركتها

– نزلتُ للتسوّق.

مالتْ إلى بناية جانبية ودخلتْ، فدخلتْ معها ..

طافتْ بالأركان الممتلئة وخطفت عيناها ركْن الحلوى .. اشترت علبة من الشيكولاته الداكِنة .. وخرجتا ..

مرّت على (سوبر ماركتْ) صغير كانتْ تتردد عليه ..

توقفت أمامه، وراحت تحدق في مدخله، ورغبت في الدخول.

ذكرها صاحبتها أنهما كانتا في محل كبير وشهير، وبه كل شيء تحتاجه ..

قالت لها وهى تغمز بعينيها وتبتسم

- بضاعتُه جيدة.

اشترت زبادي منزوع الدسم، وحلاوة طحينية، وزيت زيتون، وشيبسي بالملح.

.. حين واجهتْ الشارع بامتداده، جابهها الزحام فقبضت على ذراعها.

راحت ترب ويدها تمسك بالأغراض .. ثم توقفت أمام دكّان صغير، بجوار بابه ثلاجة كبيرة ممتلئة بزجاجات المياه الغازية وعبوّات العصائر.

فتحت الباب، وتناولت زجاجتي (بيريل) ..

تفحصتْ الورقة الملتصقة على الزجاجة، وعلامتها التجارية، وتاريخ الصلاحية.

تساءلتْ صاحبتها في استنكار:

- رتشربي بيرة

نغزتْ بأنفها لا مبالية:

- بتريّح الكلى.

حين انتهتْ وضعتْ الزجاجة في الصندوق ..

وحين انتهتْ صاحبتها ناولتها للرجل ..

.. رفعتْ يدها، وأومأت برأسها وقالت:

- الفرن قريب

جذبتها، ومرقتا ..

توقفت أمام الفطائر، والبيتزا، والخبز الأسمر، والبقسماط بحبة البركة ..

راحت تتقافز وهى تشير إلى البائع .. هذا .. وهذا ..

كظمت الأخرى غيظها وشدتها بعنف كي توقف جموحها .. فمتى تأكل ما تشتري وهى الوحيدة؟

.. حين وصلتا إلى نهاية الشارع، رأته يُقبل نحوها، وفي يده أكياس ممتلئة .. مثلها تمامًا ..

.. حين تواجها ابتسما، سألته عن أولاده .. قال لها إنهم في بيوتهم ..

وابتسم مودِّعًا ..

لكزتْ صاحبتها بكوعها وقالت:

- كلما تسوقتُ أجده أمامي

ويحملُ أكياسًا كثيرة .. مثلي ..

.. وبدتْ سعيدة .. وفرشتْ وجهها بسمة حانية.

جوَاهرْجي

.. لم يغب عن ذاكرتي

كان طويلًا، ونحيفًا، شعره مجعّد وأشيب .. ونظارته لا تفارق جبهته، يستخدمها حين يدقق في الميزان، (ويشيل ويحط) فصوص الذهب.

.. كنت وأسرتي نتعامل معه .. من محله اشتريت شبكتي وخواتمي وسلاسلي .. ذَهَبي كان يقدِّمه لي كأنه يُهْديه .. لكلامه وقع على السمع، تشربه العين، ويستريح القلب.

ينظر كمن يندهش

- هذا الخاتم يليق بك

وأراه مثل فتى رومانسي يهيم في وجْه حبيبته.

- وهذا السِّوار يأكل معصمك ..

ويتحدث في عذوبة مرهفة عن العقد الذي يناسب الجيد الطويل المنحوت، والفراشة التي تطير وتحط على خصلة الشعر تزين بجناحيها عيون المحبين.

وكنت أضحك في (عِبِّي) وتفضحني عيوني .. وكأن نقَّادة ..

.. حين ولجتُ بابه، نهض متهللًا وحيَّاني في بشاشة

– أين أنت ؟

تفحَّصني، ودعا الله أن يحفظني وأن يكون جمالي نعمة وبركة .. سألني عن الوالد، والزوج، والبنت، والأيام ..

.. تنهدتُ وبدوت ساهمة

قال وأصابعه تلامس (ميزان الذهب) وعيناه تقتحمانني

– أعرف

رمقتني في حنُو كعادته ..

– اصبري

استدار، وأومأ برأسه .. فخرج الصبي

– والدك بعيد عنك، وزوجك مشغول بعمله ليل نهار .. وقد لا ترينه.

حاولتُ التخلص من عينيه .. عجزت وظللت مشدودةً إليه.

وكأنه يصب في سمعي صلواته .. راح يرّدد ..

– الناس إن ضَعُفْتِ ذئابٌ وإن تنمرْتِ كلاب ..

ضحكتُ وجلًا .. ثم صمت

- وأنت الجميلة

ظلت عيناه تراوغانني ..

- حماك الله منهم .. ومنكِ

أقلقني .. كدت أحادثه لكنه بادرني

- اجعلي بينك وبينهم حاجزًا كالجدار.

بدا لي أنني أبتسم وأشعر بفرحة ترعشني

- تخاف عليَّ

ثم ضحكتُ وأنا أغمز له

- تريد سجْني

رنا في تأمل كأنه يُنهي موعظته

- افتحي كُوّات صغيرة .. يدخل منها النور.

.. النور فقط يا بنتي!

.. ومددتُ يدي أودعه ..

مدّ يده وقبض على أطراف أصابعي

لم تفتْني رعشة تتواصل على رموش عينيه ..

وترتجف في راحته.

***

طبيب

.. لم تَعُد تريحها صحتها .. العين، والأنسان، والبطن، والعظام .. تتحايل على الألم، لكنها لم تعد تطيق ما يحدث في البطن ..

..ذهبت إلى الطبيب ..

قابلتها الممرضة .. مكتنزة ومتصابية ..

العيادة نظيفة، والمرضى يتناثرون على المقاعد ..

.. انتقتْ مقعدًا متطرفًا وجلستْ ..

طافت عيناها بالوجوه المعتلة، والتقطت مجلة نسائية .. توقفت أمام الجميلات، النحيلات، وربتتْ على بطنها الممتلئة .. تحسدهن على إرادتهن .. وتتعاطف مع حرمانهن من متع الأكل والشراب.

صادت عيناها القلادات اللامعة .. وفصوص الألماس والفيروز تضْوى بالجمال ..

.. دارت بعينيها وهبطت على معصمها الأملس، وعنقها الناعم .. افتقدت لسعة الذهب .. كلما اكتنز اللحم ورَبَا ..

خطفتْ صور النجوم والنجمات، وزمتْ شفتيها ونحتَّ المجلة ..

.. نبهتها الممرضة فنهضت متثاقلة .. ودخلت ..

"كان الطبيب كبير السن، ممتلئًا .. وجهه سمين، وعيناه منطفئتان .. تتدلى السماعة فوق بطنه .. وتتأرجح"

اقترب منها، وسألها .. وقالت، وظل يردّد في رتابة ..

- لا تقلقي

تمددتْ على طاولة الكشف .. واقترب .. مبتسمًا

لاحظت تورمًا في الخد كلما ابتسم .. ودتْ لو تضحك لكنها وَأَدتْ رغبتها ..

ضغط على البطن، فوق، وأسفل، وفي الجانبيْن ..

نقر بإصبعه على الصدر ..

قطَّب حاجبيْه ومال بأذنه على الصدر .. وقال

- لا أسمع له صوتًا.

.. رنتْ .. وتساءلتْ

- من ؟

خطفها في سرعة كدّرتها

- القلب!

زفرتْ في تنهُّدة لاسعة ..

شعرت بأصبعه تضغط وتتحرك في حرية فوق بطنها وصدرها ..

وأحست برعشات داخلية أرجفت الجلد ..

.. وهو يكتب لها عددًا من الأدوية .. رنا إليها ..

كانت تصلح من هندامها .. وتشد جيبتها، وتفرد كمها ..

- سنحتاج إلى زيارات أخرى

.. شعرت بفرح داخلي ..

تمنت لو يقولها .. وقالها ..

بسطت كفها ثم قبضت على فرحتها ..

خالسته .. ودستها في صدرها.

وخرجت.

كُهولة

- زواج.
- ألم.
- المأذون.
- الزيارة.
- المسكن.
- الشرفة.
- صدقة.
- المرض.
- الفرح.

زواج

قالت: – سأتزوج

وراحت تحكي وهو يستمع بأذنه اليسرى.

كانت الأذن اليمنى تتابع ما يدور بين "ليلى" و "أشرف" في فيلم "حب البنات" ..

صكّت سمعه وهى تنهره ..

– انخرسْت

خشى أن تغضب فتخاصمه، فقال كالمعْتذر.

– حسبتُكِ تضْحكين.

أغلق التليفزيون، وأعار سمعه لها وهى تتحدث عن الرجل الذي كان متزوجًا قبلها بثلاث نساء ..

لم تكْترث لاستهجانه، وتمهَّلت وهى تؤكد أنه طلّق اثنتين وبقيت الأولى معه .. وله منها رجال لهم أسرهم وأولادهم.

قال يضاحكها:

– لعله في قوة أحفاده

ردتْ وكأنها تغيظه:

- (أصْبى) منهم ..

... أخذتْ الحرارة معها ..

وتركتْه مدهوشًا .. وباردًا.

أَلَم

مات زوجها .. وعاشت بعده وحيدة عشر سنوات كوامل.

كَبُر الأولاد، وتزوجوا، واستقلوا بحياتهم .. وظل مسكنها مفتوحًا .. تصفه – في وَلَهٍ – بأنه يشبه دوار العمدة لا يخلُو منْ قَدم تدبّ فيه.

.. وكانت تأتنس بهم.

حين عادت من رحلتها لمرسى مطروح، شعرت باضطراب في المعدة وهمود في الجسم، وحرارة تلازمها، لزمت الفراش، وداومت على تعاطي الدواء، طالتْ رقدتُها، وقل زوارها، وأدركتْ قسوة أن تحيا بمفردها، وأن انغماسها في نوادي المسنين لا يخفف عنها الألم الذي تحمله في قلبها، ويرهق بدنها.

الأسبوع يمر عليها ولا ترى أحدًا من أقربائها، أو أولادها .. وكأن أعينهم عميت عن مسكنها.

سهمت عيناها وهى تسترجع الحوادث المتشابهة ..

وتمتمت: – سيصلون بعد انتشار رائحتي!

دمعتْ عيناها وصوتها يختنق

- ما الفائدة ؟

وتماسكتْ ..

مسحتْ وجهها بكفّيْها ونَهضتْ .

أطلَّتْ من الشرفة.

كان الجو يميل إلى البرودة، ورياح الخريف تسري فترعش الجلد.

أحست برجفة تمشي في جسدها وتلسع وجهها .. فانسحبتْ داخلة.

***

.. كثيرًا ما اصطادتْ عينيه وهى تزاحمها كلما التقيا في مناسبة ..... بينهما قرابة بعيدة.

كان كلما اجتمعا في مناسبة يظل يرنو إليها كأنما يبثها رسالة .. وهى تدرك وتتناسى .. وهو يلحظ خبط الجفون وينتظر.

.. أطلت في المرآة.

سوت ثيابها، ورجلَّت شعرها، وعدلت من هندامها .. وابتسمت وهى ترى طلاوتها في المرآة.

وطلبتْه ..

وصلتْها لهْفتُه .. وعتَابه

- لم يزرني أحدٌ في مَرضى.

... في المساء .. والليل يُرْخي هدْأتَه دخل حاملًا معه الفاكهة، والشيكولاته، والبسكويت والألبان ..

... أراحتْه بسْمتُها فغاص في مقعده واتَّكأ.

رمتها وهو يحتسي قهوته المضبوطة، فجفلت عيناها .. واحْمرّ خدّها، ورفّت بسمة حانية .. فرقّ القلب .. واحتدم.

.. قال:- آن الأوان أن تقبلي

.. قالت:- قبلتُ.

***

المأذون

.. لم يكن يتوقع المفاجأة فسألها مندهشًا

- تزوجتِ عند مأذون!

وصلْته بسمتها من انفراجة الشفتين ورّقة الصوت ودلاله.

- لأ .. عند بقال.

وضحكتْ ..

شعر بسعادتها .. وهى تكاد تفلت من قيد الوحدة.

وقال في نبرة جادة ورزينة

- رسمي .. أو عُرفي ؟

.. صمتتْ وحلّ سكون طويل .. ثم تلفظت في هدوء ..

- عُرْفي ..

وقبل أن تعطيه الفرصة للرد قالت في تؤدة

- أمام محام وشاهديّن ..

وراحت تخبره أنها حدثتْه عمّا تسمع من أمور الزواج العرفي، وعن الورقتين، واحدة هنا والأخرى هناك .. ونقلت عنه، أنه هبَّ غاضبًا وقال: إنه"لعب عيال" ولا يقبل به، لأن فيه ظلمًا للمرأة.

.. وعاد صوتها إلى هدوئه ورقته

- أصرْ على المحامي لضمان الحقوق

.. وبدا له أنها تغيظه، فعلًا صوته

- ما عيب الورقتين .. أخشى أن يخدعك.

.. قال لي .. إنه لعب عيال

.. وعلت ضحكة مكتومة صحبتها كلمة ممطوطة .. يا عيِّل.

***

الزيارة

.. حين جاء في المرة الأولى صحبه ابنه الكبير .. دققتْ فيه النظر فرأتْه يقارب عمر ابنها .. متزوج وله ولدان .. كابنها.

وهو يشرب الشاي استأذن أباه وأخرج سيجارة وأشعلها ..

قال وخيط الدخان يتلوى ويتلاشى

- تعلمين أنّ أبي وزع الإرث علينا

راوحتْ النظر بينهما، ولزمتْ الصمت.

- لم يَعُدْ معه إلا الشقة التي يسكن فيها مع أمي.

.. تحرَّك في مقعده، وأقام ظهره ولاح الشبه فيها واضحًا بينهما ..

.. مدّ الأب يده وفرد أصابعه وأشار إليها وقال وهو يرمق ابنه ..

- من واجبي أن أحافظ على حقوقها.

.... أدركتْ أن الولد يريدها أن تعلم أن الزوج لا مطمع فيه ..

.. وتذكّرتْ أنه .. لا يزال يعْمل بالتجارة، وأنها تدر عليه أمولاً تزيد عن حاجته، وأنها مسئولة منه .. حيًا أو ميِّتًا .. هكذا كان يقول .. وجاش قلبها بعاطفة مستكنة كادت تدمع لها ..

.. هى الكهلة التي تستند عليه ..

وهو العجوز الذي يلبي احتياجاتها ..

***

المسْكن ..

.. صوتها واهنًا، وهى تتحدث في تخافت كأن بها علّة.

قال يضاحكها:- لعلها تفهم مقْصده، عَبَر صوتها شاهقًا وقالت:

- ليس بسبب ما تفكر فيه ..

... كان قد رأى أن تنتقل معه إلى (المسكن) في **6** أكتوبر ..

فهو يحب أن يكون قريبًا من مقر عمله، ويحرص على التواجد ومتابعة العمل، ورقابة العمّال ..

وفوجئت – وقدمها على الدرجة الأولى – بالفخامة والاتساع وأدركتْ أنها مقبلة على عبْء بَدَني سيرهقها ..

مطلوبٌ منها أن تشرف على المكان، وأن تراقب هى الأُخرى العمالة في المسكن بمسْتويْيه، وأن ترسل عينيها كل حين، وأن تظل صاعدة هابطة، حتى لا تفوتها شاردة.

- صوتك ينبئ عن تعبك

.. وراح يشجعها .. ويحدثها عن حلم المؤانسة الذي يزيل الوهن، وأنها في المكان الجديد ... ستحيا حياة تتجدَّد، وتستعيد نشاطها وتتخلص من ترهُّلها قليلًا .

.. سألها فجأة عن شقة الدقي التي وعدها زوجها بها ..

صمتت طويلًا حتى قلق عليها .. وتسلل صوتها واهنًا

– الشقة مهجورة .. وتحتاج ترميم

وتنهدت في صوت حار وممدود يحمل حزن البعاد ..

– البعد عن شقتي يؤلمني ..

عاد الوهن إلى صوتها وهى تحكي أنها طلبت يومْين في الأسبوع كي تطمئن على شقتها، وتستريح من كثرة الشغل .. وأنه وافق .. وكانت تحبُّ لو رفض .. لكنه وافق ..

وأطلّ عليه السُّوال ..

.. أيكون الرجل تزوجها لتعمل لديه بلا أجر ؟

وإلى متى ستواصل ؟.

تمتم في نبرة خافتة كأنه يشفق عليها.

– أخشى أن يستغلك، ثم يتخلص منك

وكأن صدى التمتمة وصلها، فارتعش صوتها غضبًا

- منْ يتخلص مِن مَنْ .. ؟ .. رجعْتَ لخبثك القديم.

وارتفع صوتها زاعقًا ومؤنبًا .. وضاغطًا ..

- أكره الغيرة ..

وأمقت الحسد.

***

الشُرفة ..

.. طلب أن يراها فتعالتْ بأنها على ذمة رجل.

أخبرها أن تقف في الشرفة، وأنه سيمر عليها .. يراها ويمضي.

.. ضحكت وهي تترنم (قُول للزمان ارجع يا زمان)

.. ألحّ فوافقتْ.

***

غرق الشارع في الضوء، واستقبلتْ المحلات زبائنها ..

البيت الذي .. تسكن فيه تعكِس نوافذه اللامعة أضواء الشارع.

.. وقفتْ وأطلتْ من الشرفة ..

مسكت بيدها مُلاءة مطرَّزة ووضعتها على حبل الغسيل ..

.. وجهها أبيض وشعرها مشدود بمنديل.

.. لمحها فعبر الشارع ..

وجَد ماسحَ الأحذية أمام المقهى المجاور فمدّ له حذاءه.

وقف تحتها مباشرة .. كانت الشرفة في الطابق الأول ..

أمعن النظر فلاح الوجه مجهدًا وخبطات الجفن تتوالى ..

خرج رجل من المقهى، ورفع رأسه، ونظر إليها، وراحا يتحدثان.

.. تميل بجسدها على السور، فيعلو صدرها ويتكوّم .. وهو يستند على قدميه ويشهق برأسه عاليًا.

طلبتْ منه أن يحضر مقعدًا من المقهى، وأشارت إليه وهو يُسلم حذاءهُ لليد الماسحة، وجلس، أسند ظهره، ورفع قامته، ومدّ رجليه وأراح قدميه فوق ورقة من (الفبْر) السميك.

حين انتهى كانت قد اختفتْ.

***

راح ينتظر أن تهلّ .. وظلت رقبته تتطاول .. عاليًا.

هلَّت ومعها سلة صغيرة، فردتْ حبّلها وأدلتْها.

اندهش وهو يراها تشير إليه.

لم يعرف بالضبط ما تُريد، وسمعها تقول:

- ضع فيها الصدقة التي تعودْتَ عليها.

.. كانت قد حادثتْه عن امرأة وحيدة تخلَّى عنها أولادها

ومات زوجها، وتحْيا على ما يجود به الناس.

تعجب من طلبها، كان قد بادر بالمساعدة، فهل تُراها تُحرجه ؟.

وتذكّر أنها أخبرتْه أنّ زوجها الثري سيتكفل بإعاشتها.

.. استأذنها وذهب إلى محل مجاور، اشترى علبة من البسْكويت وكيسيْن من اللبن ..

طوتْ الحبل، ودستْ يدها ..

بدا على وجهها أنّها اطمأنتْ، فابتسمت، وأضاء ثغرها ..

.. و .. وأمالت رأسها ثم استدارتْ إلى الداخل

***

صدقَة

– لن تُصدق .. الخمسون جنيهًا راحت لصاحبها.

كان يستمع إليها ورنّة صوتها تعلو ..

صحبتْ الرنّة ضحكات، زاعقات، متواليات.

تعجب وعزا الأمر إلى حالة من الانشراح حلتْ بها .. فالنفس كالحمامة إن خفَّت هدلتْ، وعلتْ.

.. وصلتْه همهمات بعيدة فحدس أن أحدًا معها

صك سمعَه صوتُها وهى ترد في زعيق عالٍ

– مالُه صوتي.! وفيها إيه!.

واعتذر لها ..

***

حكتْ فيما بعد إبنتها تنتقدها كثيرًا، وتطالبها أن تخفف من حديثها العالي، وأن تخفض صوتها، وتغضّه، فعفه الصوت من عفّة صاحبه.

.. وقالت إنها لا تخفي عن ابنتها شيئًا، وإنها الوحيدة التي تعلم موضوع زواجها ..

ضحكت وقالت:– مم أخاف ؟.

.. وأخْبرتْه أَنها ذهبتْ إلى المرأة التي تعتاد التصدق عليها فلم تجدها، وظلتْ متوجّسة من الأمر، وخشيت أن تمتد يدها – عفْوًا – وتُدخلها في مصروف البيت دون أن تدري.

وهى تنزل على سلالم بيتها، وتتكئ على السور الخشبي خشية أن تزل قدمها، رأت البنت أمامها ..

استدركت في زفرة لها صوتٌ كالصَّفير

– كانت تعمل عندي من فترة

أخبرتها البنت أن أمها مريضة وأنها سقطت في طريقها إلى الست أم محمد التي تعمل عندها .. وأن الناس الطيبين نقلوها للمستشفى.

والطبيب كتب لها أدوية وقال اشتروها من (برّه) ..

وهى أرسلتني إليك وقالت لي:

– إخبري ستك بحالتي.

***

.. غيرت مسارها وذهبتْ إلى المستشفى ..

حين رأتها ارتج صدرها وكادت الدموع تطفر منها.

– وضعتُ على الخمسين، خمسين .. حالتها صعبة.

خرجت منها تنهيدة ساخنة كاد يشعر بلسعتها، وقالت:

- طلبت منها أن تدعو لك

وهى تُنهي حديثها الذي شابته رنة حزن

- الله يقبل الدعاء ..

..... وقبل أن يُبدي لها استعداده للمساعدة .. انسحب الصوت .. وحلّ صمتٌ برائحة الشجن.

المرض

.. وكانت تروح وتجيء في مسكنها القديم وهى تكاد تخرج من "هدومها"، وكأن جيوش النمل تسربت إلى أوردتها، وراحت تدُب في تُؤَدة ..

.. كادت تنكفئ وهى تخطو في نزق إلى دولاب الملابس ..

تمد يدها حانقة .. وتخطف ثوبًا أسود مطرَّزًا بفصوص تضوي.

كوّمته، ورمتْ به في القاع وتمتمت

– لا وقت لك.

خطفت نظرة إلى المرآة .. واندهشتْ.

... لايزال الوجه جميلًا، والخد تشوبه الحمرة.

.. تحب نفسها، وتحب أن تدلّه جسدها، وتسعد بكلمة طائرة تصل سمعها.

وزمّتْ شفتيها وهى تحدق.

– سيندم لو فعلها

***

.. كان قد أخبرها أن تعود إلى مسكنها القديم، لأنه سيسافر إلى الخارج .. أفهمها أن زوجته – أم أولاده – مريضة، وأن الداء استشرى في جسدها، والأطباء نصحوه بالسفر إلى الخارج .. وحددوا المستشفى والبلد.

.. لمحت في عينيه قلقًا، وأوجسها أن صوته يشي بالحزن والأسى .. حين نظرت إليه أدركت أنه يريد أن يبوح، وأنه لا يدري كيف ؟..

أمالت رأسها، ورسمت بسمة شاحبة وقالت:

– أنت تخفي عني شيئًا.

هز رأسه، وقالَ وأسف يشد وجهه

– عرفتْ بالزواج
– أخبرتها ؟
– أخبرها الأولاد
– حزنت
– جدًا
– مع أنك تزوجت عليها .. قبلي
– كانت قوية ... المرض أوْهنها.

***

.. أدارت رأسها، نفضتْها.

.. خطت نحو الشرفة وراحت تُطل منها وتُمعن ..

رأت الصيدلية، والمقهى، وبائع الكبدة، وثلاجة السبيل، وماسح الأحذية .. و .. ودمعت عيناها، وانفرجت شفتاها هامسة

– أنا .. قوية ..

... وكان الليل يهلُّ وئيدًا في عباءته المعتمة.

الفَرح

بدا الصوت صافيًا له رنينٌ موقعٌ .. يشبه صوت قطعة معدنية من الفضة الخالصة، سقطت على أرض ملساء ناعمة.

لاح الصوت ممتلئًا بالفرحة .. فبادر منشرح الصدر

- أفرح لفرحك!
- كيف عرفت ؟
- صوتك، ونبضك الذي أسمعه.

حدثتْه عن الحب الذي غاب عنها ثم عاد ..

.. في هذا العمر يكفي أن نستأنس، ونشعر بالخطْو حولنا .. أمَّا أن نحب ويرتجف القلب ويشف، أمرٌ لا يخطر على البال .. لكنه حدث.

.. شعرتُ زمنًا أن عتمة الليل قد تطول وأنها – لكدْرتها – قد تغالب ضوء القمر وتحجبه .. لكنه حدث .. غزاني ضوءُ القمر.

لم تتوقع أن تزورها .. لكنه حدث.

.. جاءت زوجة ابنه ومعها علبة صغيرة من الشيكولاته السوداء التي أحبها.

وقضت معي ساعتين كاملتين، وشاركتني طعام العشاء الخفيف، توجستُ في البدء وخفتُ .. سألتها عنه فأخبرتني أنه مشغول، والاستعداد للسفر يأخذ وقته.

ونظرتْ إليّ وهى ترشف الشاي بتمهل وتقول

- اليوم .. أنصفك ..

تنبهتْ حواسي كلها وأنصتُّ.

***

.. رفعت زوجته – أم أولاده – رأسها في وهن .. لاح المرض على وجهها، تقلصتْ ملامحها المرتخية وصدرت منها أنة مبحوحة وموُجعة .. وكان – هو – يجلس على حافة الفراش يرنو إليها، ويأسف لحالها.

ظلت تنظر إليه وشفتاها ترتعشان ثم نطقت بصوت واهن.

- طلقْها

اعتدل، وربت على قدمها، فسحبت رجلها في خطفة مباغتة، – بعد أن أموت .. عُد إليها.

باح صوتها بمهمة مُدْغمة

- لم يعدْ في عمري الكثير.

.. لم تتغير في الصحة والمرض .. ظلت قابضة عليه.

لن يتخلى عنها في مرضها، الأولاد يغضبون .. وهو يحبها بطول العشرة وسيسافر بها إلى الخارج للعلاج

ظل يردد في تبسُّط:

- ألا تحبين أن تطمئني عليّ

لزمتْ الصمت وأمعنتْ النظر وهو يستعطفها ..

- ماذا فعلتْ المسكينة حتى أطلقها بعد شهر ؟

كمشتْ بأصبعها الملاءة، ولاحت العروق تنتفض.

- أخذتْك مني
- لا يأخذني منك أحد

وابتسم رابتًا كفها التي ارتجفت تحت لمسته

- أنت تعلمين .. فلا تغضبي.

ارتجتْ، وخشي عليها، فمال في وداعة كاملة.

- لا أحد في الدنيا يُساويك

وانسي الأمر ..

أنامها، ودثَّرها، وربت على خدها .. وابتسم

***

ضحكت في سرها، وكتمتْ فرحتها ومدت يدها وسحبتها إلى الداخل ..

وراحتا تثرثران.

***

رَنين

- الكوز.
- جمبري.
- الظهيرة.
- حمامة.
- الأبيض.
- البسمة.
- الوجه.
- حداة.
- غارة.

الكُوز

.. كان الوقت صيفًا والطريق إلى الحقل مغسولًا بالشمس وأنا ذاهب إلى عمّي الذي يكاد لا يفارق الحقل ومعي علبة السجائر ومشط الكبريت ..

.. مشيتُ صامتًا وسط مدقَّات رفيعة بين الغيطان، "وعيدان" الذرة تتيه بخضرتها، وكيزانها المكتنزة، وكنتُ أقيس طولي بطول (العدان) .. وأشعر باللهفة وأنا أستعجلُ النموّ.

.. رأسي محجوبة .. وعيناي تقودانني ..

.. من بعيد رأيت رأسها يرتفع ..

وحين اقتربتُ لمحتُها تنحني وتلتقط من الأرض الرطبة حبَّات الطماطم وأعْوادًا من (السريس) والرِّجْلة .. لمحتُ حزَمًا من البرسيم مرصوصة..

استقامتْ ورمقتْني وأنا واقفٌ أمامها ... في يدها كوز من الذرة تقبض عليه بكفِّها .. راحت تحرره من أوراقه حتى بدا لامعًا ووامضًا وحبَّاته تنْسبك كالثنايا البيض.

.. حرَّرتْ جسدها وجلستْ

أفردت ساقيها وقرَّبت الكوز من فمها .. تكاد تلثمه ..

وقالت في همهمة:– عمَّن تبحث ؟

.. ظللتُ ساكنًا ..

كانت الشمس متوهِّجة .. تحمّم رأسي بنورها، فانحنيتُ وجلست ..

مدّت ساقها، وشبكت ذراعيها، فلاح صدرها بارزًا ..

قلت:– شفْتِ عمّي

قالت:– لبس جلبابه .. وخرج

حوّمتْ عصافير مُجْهدة ثم هوتْ مبتعدة ..

***

.. نظرتُ إليها .. ولذتُ بالصمت .. وأنا أكاد أتنفس بصعوبة .. أشارتْ فجلستُ بجوارها نحتمي (بعيدان) الذرة وأوراقها من الشمس .. وتحتنا تشابكتْ أعواد النجيل وجعلتْ منه وبَرًا أخضر.

مددت يدي وانتزعتُ بعضها، ابتسمتْ ورمتْ برأسها، ونظرتْني رانيةً ..

توجستُ وقلتُ لعلَّها شعرتْ بأحدٍ قادم

قالت وهى تتلفَّتْ، وتتنهَّد.

- خفْت.

.. طال صمْتي فافْترّ ثغرها عن بسمة رائقة

- لا أحد سوانا في (الغيط).

أزاحتْ منديلها فانهلَّ شعرها وبدتْ كجنيَّة ..

ورحتُ أتأملها .. الوجه، والعنق، والصدر، والشَّعر المنْسدل ..

ظلتْ ساكنة، ترمقني، فأدرتُ رأسي خجلًا.

أومأتْ بإصبعها .. فاقترفتُ منها وجلستُ.

بدا المكان حولي جميلًا ومبهجًا ..

وكانت أصابعها تمشي في شعرها، تنْفضه وترجلّه فتزداد بهاءً.

***

شملتني رجفة مباغتة، احترت فيها فنهضتُ فاردًا جسدي ..

مررتْ على كيزان الذرة واخترتُ كوزًا ممتلئًا، يتيه "بشرابته" الصفراء .. ووقفت أمامها ومددتُ يدي ..

مدّت يدها وأخذتْه، ظلت ترنو إليه، وتراوح النظر بيني وبينه، وتبتسم، تضغط عليه بأصابعها كأنها تعتصره .. وتنظر إليَّ وتبتسم ..

خلْتُها فرحتْ، ففرحتُ ورحت أدور على العيدان، أنتقى الكيزان وأدسها في ثوبي .. وأنا أتخيَّلُها – وهى تراني ممتلئًا بها – فرحةً – تضج بالصخب، وتنهض فاردة ذراعيها وتأخذني في حضنها، تحميني من وهج الشمس وتمسح عن وجهي وخزات الأوراق .. الخضراء .. وتتلقَّى في لهفة هديتي الواعدة !!

.. حين وصلتُ ..

كان المكان ساكنًا .. ومقبضًا.

لم تكن هناك ..

تركت المكان ومضتْ ..

وكان العشب يتَّخذ هيئتها وهى تقعد متحررةً عليه ..

.. تهدَّل ثوبي .. وتناثرت الكيزان ..

وسلَّطتْ الشمس أشعتها ..

وأنا واقف .. ساكن .. أرنو إلى هيئتها .. فوق العشب.

***

جمبْري

تودَّدتْ إليه وقالت في فرْحة هادئة:

– أخاف عليك من الحزن ..

وفردت ساقيها وراحت تؤرجحهما وهو ينظر إليها ويتعجب.

***

من أين يأتي الفرح .. وهو في عراك يومي كي تستمر الحياة ؟!

ينتظر الأب من جولته الليلية عساه يجلبُ شيئًا، وزوجة أبيه تنتظر أمام البيت لتقطف زهرة حمولته، وتدخل بها، وتدسّها في حجرتها ..

ويُعلن أبناؤها عن سرها في الصباح.

.. كفَّت عن الأرجحة، وحدقتْ فيه .. وقالت:

– ولا تُعطيك شيئًا !!!

– البقايا.

وتزمُّ شفتيها في ألم وتضرب بقدمها السور الواطئ ..

– حتى الطعام !

***

ماذا يقول لها .. كي يخفف غضبها ؟.

الأب الذي لم يعُدْ لديه وقت للسماع أو النظر .. لا يرى الجلبات الذي تمرَّأ على جسده، ولا جسدَه نفسَه الذي هزل حتى نتأت عظامة وبرزتْ ..

.. فما الذي يُغريها في صبي ضامر تلتوي أمعاؤه جوعًا !!!

لاحظت صمته، وألمه، وعينيه المحدقتين فقالت في صوت عالٍ:

– ستأكل معي اليوم.

تملْمل وهمَّ بالقيام ففشدتْه من كمّه وأقعدته ..

– جهزتُ لك اللحم

وراحت تتشمَّم الرائحة .. وتدعوه أن يدرّب أنفه ..

تُلفت نظره إلى رائحة لحم الضأن غير لحم البقر ..

شدّه حديثها فسال ريقه ..

– سأصنع لك (فتَّة) بالمرق

والثوم المطحون.

فتحت فمها ومسحتْ شفتيها بلسانها وقالت:

– تذوّق.

فتح فمه، ومسح شفتيه بلسانه .. وتذوق ..

- **ما رأيك .. أنا أمْ زوجة أبيك ..**
- **لا آكل من يدها طعامًا .. كطعامك**

مدّت يدها، ومهدتْ فرشتها، ورصَّتْ أطباقها ..

- **مدّ يدك ..**

نظر مندهشًا وهى تشرح له .. وتُغريه

- **ها هو طبق المهلبية ..**

انظر إلى المكسرات ..

لا أبخل بها عليك ..

لا أبخل بها عليك ..

الجوز، واللوز، والزبيب الأصفر.

- **وأحمر.**

تنهَّد مبتسمًا ..

- **أنتم تأكلون كثيرًا.**

نظرتْ إليه فرحة.

- كلْ واشبعْ

راح يتناول من يدها طبقًا وراء طبق ..

حين انتهى، كوّم الأطباق ليغسلها ..

رمقته مبتسمة وهمستْ

- شبعْت!

رنا إليها ممتنًّا وقال مادحًا

- أنت طباخة ماهرة.

***

.. لمح وجهها يلتمع تحت بقعة الشمس ..

وحُمرة الخدّ تسيل في سكون ..

فجأة .. نهضتْ، ومدّت كفّها إليه ..

قبض على أصابعها ومضيا ..

.. كانا في طريقهما إلى (المشغل) الصغير بعد يومهما المدرسي ..

قبل أن يصلا إليه قالت ضاحكة ..

- غدًا .. ماذا تحب أن تأكل ؟

قال في لهفة:

- جمبري ..

وراحا يضحكان ..

***

الظَّهيرة

.. دققتُ البابَ وجاءني صوتها يدعوني للدخول ..

في الظهيرة كنتُ أدخل بيتها غالبًا، وكنت أجد الباب مواربًا.

تسحبت في خجل حتى وصلتُ إلى حجرتها.

.. رأيتها مستندة على وسادة، وفاردة ساقيها، ولاح جسمها ممتلئًا، لم تسألني عن سبب حضوري وقالت عاتبة: تأخرْتَ عليّ.

***

.. كانت رأسي كبيرة ويداي ضخمتين، وأصابعي طويلة ..

وكانت تنظر إلى يدي ورأسي، وقدمي .. وتتنّهد .. وتبتسم .. ولم أكن أدري عنْها الكثير .. سوى أنها جارتنا .. وكنت أشفق عليها، وألبّي طلباتها .. اومأت إلى طبق الفاكهة، وبدا لي أنها تشفق على ما فيَّ من عيب ..

التقطت ثمرة (جوافة) وقضمتها، ظهرت على وجهها الدهشة ..

لعلّ أسناني وهى تغوص في لحم الجوافة الأبيض أثارها ..

.. وصلني توجعها ..

***

.. تردَّد التوجع في فضاء الحجرة، وأشارت إلىّ فقعدت بجوارها ..

أبدت توجعًا متقطعًا وهى تسحب ثوبها، وتدعك ركبتها، الركبة ممتلئة وتصنع حزًا غائرًا مع بداية الفخْذ، مدتْ يدها وغمست إصبعها في حُق، ووضعته على أعلى الركبة وأومأتْ إلىّ، حدقتْ فيها، وأنا أتابع الرائحة اللاسعة التي تفوح منها.

.. شدت يدي وبسطت كفِّي على موضع المرهم وقالت:- ادعكْ برفق.

ترددتُ .. ثم اقدمتُ.

.. كان جلدها ساخنًا، ولحمها طريًا وجزلًا يروح ويجيء بفعل (الدعْك).

سحبت ثوبها فلاحت الفخذ ضخمة كأنها متورمة، ووضعت بعضًا من المرهم، وقالت لي:- الألم شديد .. همّتك ..

ظللت أمسّد فيها وهى تسحب ثوبها قليلًا .. قليلًا .. وراحت ترمقني ويداي الاثنتان تروحان وتجيئان فوقها ... وأسمعها تئن، وأرق لها، و(تصعب) عليّ .. وأراها تسبل عينيها حتى خفت أن يكون قد أصابها ضرر.

.. فجأة أمسكتْ بكفى وضغطتْ عليه وشدّتْني حتى خفتُ أن أقع عليها ..

لحتْني مستندًا على ركبتي خشية السقوط فتمتمت:– لا تخف.

.. تركتُ يدي لها وأنا خائفُ عليها .. صدرها يهبط ويعلو، وتكاد تختنق، وصوتها لا يخرج منها.

***

.. أخاف وأقترب منها، بصري زائغ، وصدري برتجف ..

حركت رأسها وقالتْ:– تعال ..

مدتْ يدها وشدتْني، فسقطتُ على جسمها، وكان كبالة القطن التي كنَّا نلعب فوقها.. وكنتُ مرعوبًا، وأخشى أن تغضب أو تشكوني لأمي .. فتركتُني لها ..

.. فجأة نترتْ يدها، وأزاحتني، وبدت من عينيَّ دمْعة ..

خفَّفتْ غضبها وقالت:

– ساممحتُك

وأشارت إلى طبق الفاكهة، فتناولتُ واحدة، وقبضتُ عليها بكفي الضخمة.

.. لانت ملامحها وقالت:– لا تتأخر .. في الظهيرة تمامًا ..

وراحت ترمقني وأنا أقضم الثمرة وأسناني تغوص في لحمها.

***

حمامة

.. وجدتُني واقفًا في بقعة نائية

الطريق الذي أقف فوقة يمتلئ بالحفر ..

على اليمين ترعة ضيقة وملتوية وتمتد وراء الحقول ..

على شاطئيها شجيرات متناثرة، وثمة شجرات "سامقات من الكافور تُرسل رائحتها بهمس خافت.

.. وصلني نقيق لا يبين يأتي من بعيد، وأصواتٌ طيور تتعالى أصداؤها وتختلط ..

تعجبتُ مما يصلني من أضداد.

على اليسار كانت قضبان القطار تمتد مع المدى.

أرسلت عينيَّ في المكان وتساءلت في دهشة.

- أهو المكان الذي أقصده ؟

هل ضللت الطريق إليه ؟.

المكان الذي أقصده يقع في طرف المدينة .. ولكنني الآن في بقعة نائية .. حقول، مياه شحيحة، وقطار لا يأتي، ولا صوت أتبيَّنه ..

- لكني عبرت الشارع إليه ..

الحيرة تأخذني وتُبهم الرؤية

أتكون قدماي أخطأتا طريقًا آخر أوصلني إلى النَّأي ؟..

***

.. ومضَتْ ..

لا أحد في المكان أسأله ..

.. وكان القمر يغمر الأرض بالضياء

ظللتُ أرنو إليه .. وأتلفت.

أرمقه في كل خطوة أخرطها ..

أكاد أتعثر، فحدقتُ فيه مُجهدًا ورجوته أن يزيد من نوره ..

***

.. لمحتُه يرنو، وتتسع عيناه، وبؤبؤ عينيه تحدقان فيّ، تحركت جفونة وأرسل ضوءه يربت صدري.

***

.. أبديتُ مسْكنة، وتمنيت عليه أن أهتدي إلى الدرب الصحيح ..

وكأنني غفوت فلم أتبين ما حدث .. لكنني لمحتُها تزهو وتقترب.

كانت الحمامة البيضاء ترفرف وتحط على رأسي، كأنها تشير إليّ أن أتبعها ..

وسرتُ أع أنها تصطادني برفتها .. فتابعتها

كانت إذا مرقتْ مرقتْ، وإذا انحنتْ ملْتُ، وإن أبطأت توقفتُ .. حتى وجدتُني على زاوية الشارع، وأعمدة النور مرصوصة تفرش ضوءها ..

... رفتْ، وهدلتْ، ودوَّرت هواءها ..

ثم طوتْ جناحيها ومرقتْ صاعدة.

***

كان البدر مكتملًا في وسط السماء .. ويرسل ضوءه إليّ ..

ظننتُ أنه لا يزال يحدق في وجهي ويربت صدري ..

.. ورأيته ينحني .. ويلوح ..

ورأيته يمد نوره إليها ..

كانت تنتظرني في الشرفة .. وتشع ..

وحين استقام وابتعد.

كان وجهها يضيء، وبؤبؤها يتسع.

الأبيض..

.. كنت أطوف بالمكان ألقي التحية على الأصدقاء في تجمعنا الأسبوعي ..

وأنا منشغل بهم، وبصخبهم، جاءني منْ يخبرني بأنَّ فتاة تنتظرني ..

لا أذكر أنني أعطيتُ موعدًا لأحد، ولّما رآني صامتًا وأرنُو إليه في دهشة ألقي بما عنده ومضى

***

.. هبطتُ الدَّرج، فاستقبلتني الحديقة ببهائها الزاهي .. الشجر المورق المهندم، والنخيل المحمَّل بالعراجين الحمراء، ورشَّاش الماء يوزع ماءه فوق الزوايا والعشْب الندىّ.

.. اقتحمتني فتاة بدينة في مباغتة أزعجتني، ولوحتْ بورقة معها وطالبتْني أن نجلس.

وافقْتُها فقبضتْ على كفيّ تشدني وتتعجلني ..

ولجْنا ممرات ضيقة تحوطها الأغصان والأوراق، وكانت تحرص على الدخول فيها، وكنت أحاول تجنبها ..

.. بعد مُنَاهدة جلستْ.

خلعتُ وجْهي كله عن مساحة وجهها التي تترامى فوجدتُ شبابًا يتجمعون حولنا ..

.. اعتدلتْ وراحت توجّه حديثها نحوهم ..

وكنتُ أحاول جذبها للحديث معي وأُلْفت انتباهها.

أنني أجلس معها، وأنها هى التي استدعْتني ..

وأحسستُ بالغضب.

لحُوني غاضبًا، فغضبوا وتحرش البعض بي ..

انتفضتُ، وعدوتُ، وصرختُ:-

- الحقوني ..

ظللت أعدو صارخًا، والألسنة تقذف باللعنات والسبّاب.

ونطقت الأفواه بالوعيد.

***

.. كان الناس يرمقونني ويمضون.

وكنتُ أعدو والناس يرمقونني ويمضون.

فجأة بزغَ .. فتوقفتُ.

رأيتُه قصيرًا، يلبس جلبابًا أبيض، وطاقية بيضاء، "ولاسةً" بيضاء، وشعر رأسه المتهدل وخطه البياض.

.. مدّيده ..

ابتسم وجهه الأبيض واحتضنني ..

أسبغ عليّ وداعته ..

.. حين رآه الناس تمهلوا، وأفسحوا له الطريق ..

انسحبوا وخلا الطريق له ..

.. مضى وأنا طيٌّ جناحه نحو الحديقة ..

ورأيته يلج الممرات الضيقة .. المعتمة ..

وكنت وأنا طيٌّ جناحه .. أحاول تجنبها ..

***

البسْمة

.. جلستُ على مقعد رخامي بالحديقة استمتع بالزهر اليانعة وروائحها السَّارية، وبالفراشات تهف بجماله الذي يرفّ معها ..

بدوتُ غافيًا متمهِّلة وجسدها الملفوف ينبئ في حركته عن حيويَّة مختزنة.

حين ابتعدتْ قليلًا تلفتتْ، فواجَهتْها عيناي، فتريَّثتْ وابتسمت ..

***

في هجْعة الليل شعرتُ بمن يربتُ على كتفي ..

فتحتُ عينيَّ فوجدتُها .. الوجْه وجهها .. والبسْمةُ بسمتُها.

لمحتُ باقةً من الورد في يدها، جمعتْها من زهور الحديقة التي شهدتْ عليها، فراشة ورديّة ترفرف فوقها ..

اقتربتْ وقالت في خدر

- مازلتَ نائمًا !

رأتْني مندهشًا وغافيًا .. فتقدمتْ.

وضعت الزهور فوق حافة الفراش وتمتمت:-

– أتتذكرني ؟

وكالمخدَّر المنتشي بخدره خرج صوتُ مني يحاكي رفرفة الفراشة

– أهو أنت ؟!

تبسمتْ بسمتها التي ارتوتْ بماء الحديقة .. وزهرها

– نعم

.. مالتْ ..

.. وانحنتْ ..

وأسبغتْ عليّ بهجةٌ تواصلتْ.

***

حين كانت البهجة تسيلُ منيّ وجدْتُ نفسي في حضنها، وجسدي الفتيّ يتضاءل حتى بدا كالطفل الرضيع، يسكن في حضن أمه، ويمسك بكفه ثديها الممتلئ باللبن ..

.. رحتُ أرضع صدرها

وشفتاي تنقبضان، وقدماي تتحركان في خفَّة ..

وكنت أتلَّهى برؤية البسمة ..

كانت تتأرجح في الفراغ أمام عينيَّ.

الوجْه

هدر الموج وصخب ..

وقفت المصدّات تكبح حدته، أحاطت به وتمددتْ فعلًا البَحر رطبًا ..

.. وكانت السحب واقفة كأنها تنتظر.

وظلّ – هو – مرتكزًا على نتوء صخري وقدماه غارقتان في اللجَّة.

لفت انتباهه غيمة رمادية معتمة من الوسط جذبته الحركة المتداخلة فيها .. وحدّق.

رأى الغنيمة تتشكل، والشجرة كثيفة الأوراق ترسل أطرافها ..

فاجأه وجْه لفتى ملْتف الشعر برز من فجوة الأوراق .. كان يحزم وجهه خيطٌ غامق كجلدة السَّوط.

بدا الوجه كفنجان مكسور اليد، يطل منه منقار معقوف ..

ضربت الريح الغيمة فعصرتْ الوجه .. فتفتَّتْ ..

وكان – هو – المرتكز تأخذه الأشكال التي كهيئة البشر.

.. أسدلتْ الغيمة ضفائرها وأفرغت ماءها .. وحين كفتْ لاحت العين، والأنف، ونغزة الخد، ويد تمسك بوردة ..

.. أصابه ذهول مفاجئ ..

ذكرتْه الوردةُ بها .. وهى تمد يدها وتقطفها ..

.. كانت تسير بجواره في حقل من الزهور الزاهية ..

تتألق بسمتها وتحاكي أوراق الورد: .. يسْبقها قلبها ويصبغ الخدّ والشفة.

وارتج قلبه وعيناه تحدقان في اليد، وعيناه تلامسان الوردة، وعيناه تخْضلان .. وعيناه تبتلّان.

أهو الدمع "أو رذاذ المطر" أو ذرات الموج الغاضب ..

.. خَذ لها حين تغاضي عن الفرح الذي انسكب.

فقبضت اليد حركتها، واحتجبتْ، لكن الوردة

كانت تبث عطرها وتنتظر.

ابتعد عن الصخر الناتئ ..

استطال جسده وحدّق.

تمعَّن في الوجه .. فرآه في خلسة منالوعي كأنه يماثلُه .. انتفض قلبه وتحرك ..

مدّ يده .. واستطال .. علَّه يقطف الوردة ..

لكن الوردة أمعنتْ ..

طوتْ أوراقها وضنَّت بعطرها ..

رمقتْه مُوجعة، والغيْمة تغيِّبها ..

اخضلّت عيناه .. وقبع تحتها ينتظر.

***

حِدَأة ..

.. بثت الشمس دفئها ..

استسلمت الجنينة للَّهب وبدتْ كالغافية

وكان وهو يجوس بين الشجر كأنه مغيَّب ..

تحرر من قيْد ملبسه، وهفّ بكفيّه يستجدي نسمة غائبة ..

ثمة حشرات طائرة تلوح وتختفي، تطل ثم تلبد في الشقوق وخلف الفروع.

فجأة .. عبَرة صوتٌ حاد ومتقطع

رنا ببصره فوجدها تقبض بمخلبيها على غصن متطرف لشجرة كافور ..

بقعة من الضوء تتخلل الفتحات حددت هيئتها المقبضة.

برقت عيناها، وحركت رأسها ..

خُيِّل إليه أنها تقصده بنظرتها .. كأنها تنتظر صيْدها .. وكانت هيئتها التي هى عليه تنبئ بالتهيؤ .. والقنص.

***

.. طوّح بذراعيه واستدار.

قبل أن يكمل خطوة، باغتتْه فكاد يسقط.

رآها .. وتملأها .. فانبهر وتوقف.

امرأة بيضاء مكتنزة، ينبئ جسدها عن ثراء ..

مدّت يدها .. فمدّ يده ..

ألهبتها الشمس، وأدفأته الحرارة

.. والتقيا

شعر بالحياة بين يديْها ..

هو الذي لا يعرف عنهن شيئًا، أخذته في بحرها ..

فاستسلم ..

كانت قوية، فكسرته، وعفيّة فغلبتْه

***

أفاق من غفوته ..

وصلته أصوات موقعة كأنها أصوات جوْقة ..

أدار رأسه، وأرسل بصره في المكان، والسماء، فجوات الضياء،

سحابة الفضاء وفروع الشجر.

وتساءل .. من أين ينساب النغم .. ؟

حاول أن ينهض فجثمت فوقه

أمعن في النهوض .. فنزعت ثيابها فبدت كحورية ..

أسرع فتخلص من ملابسه وبدا جسمه معتمًا .. ولاهبًا .. وغيمة من البخار الساخن تحيط به وتحجبه ..

استجمع قوته، ونفض رأسه من خدْرها، وثقلها المجهد، وَرَكَل بقدميه العشب وهبّ.

***

راح يبحث عنها فلم يجدها.

ودَّ لو بقيت معه .. تصاحبه ..

زاحمت عينيه الحدأةُ .. فردت جناحيها، ووقفت على نتوء فرع شجرة يتدلى ..

برقت عيناه فقنصتْه ..

خيِّل إليه أن الوجه وجهها .. والجسد جسدها ..

أيقن أن الوجه يطل من الوجه .. والقنص يشد ملمحه ..

والجسد ينمو ويكبر حتى حاكى جسد المرأة

ارتعب وجرى .. جرى مذعورًا وعاريًا ..

وكان صوتٌ يلاحقة .. عدْ .. إليّ.

غارة

زها الوجْه وأسْفر عن بَهاء يضْوي

أطبقتُ شفتيّ، وهدّأتُ قلبي وأنا أهامس نفسي: لم كل هذا الجذْب ؟ .. قلت:

عليّ أن أواجه وأصْطلى، وقفتُ في مَدى عينيها، ولبدتُ، بدوتُ كالمنتظر.

.. كنتُ ممتلئًا بالصمت، فكفَاني، وطالتْ وقفتي .. زجرْتُ سُكوتي وقلت: تكلم.

فُكَّ لسانك وارْم به في حضرهما علّها تدرك وجْدك، وألمك .. فيصلك منها .. البهاء طازجًا.

نظرتْ بعطْف الممتنّ، وحركتْ هامتها، ونفضتْ شعرها الذي انْهلّ كالسَبائك المذهَّبة، فراعني النور الذي فاح منها، وراح في مخاتلة يضْوي ويملأ المكان.

***

شدَّت جسمَها، وأحكمت ثوبها، ولملمت أعضاءها .. وكنتُ أنتظر .. سدَّت بقامتها فراغ الباب، فاشتغل الحس، وكانت تلامس أنفي

روائح الشواء .. في الداخل .. فأنتبه وأنتظر .. وأشم رائحة الهوى .. منْ أيقظ في الليل الهوى ؟..

رأيتها تمد يدها إلى حافة الباب، ورأيتها تفرد ذراعيها بعرض الباب ..

تحرقني الرغبة، وتخطو بي إلى النور .. وتتراجع – في خفقة موقعة – خطوة إلى الوراء وعيناي عليها، لكزتْ الباب، ولجتْ ضاحكة ..

***

أسلمتُ الأمر للهوى، وقلت إنني قادر على المبادرة .. وشنّ غارة عليها ..

وخطوتُ، وقلبي الذي كظمتُه، عصاني، وخرج من تجويفه وحوّم، وقف على الحافة، مشقْشقًا، ينتظر الإذن، لكن حدأة صاتت من الداخل، فلملمت ثوبها، وضمَّتْ خوافيها، وأخفت قمرها وراء الحجب، وأوصدت بابها.

.. وظل قلبي / العصفور قائمًا فوق مائها اللُّجيّ .. ينتظر .. أن تهلّ ..

***

كان القمر يتيه بنوره، ويستدير، ويصنع هيئته، ويبتسم ..

.. وأراها ترفع ذراعها وتلوّح، تفرد أناملها الرقيقة وتلاعب ضوءه، فيسري النغم راعشًا، وأراني ممدَّدًا، رَهَقُ البعاد أمضّني، وأحسُّها، في غفوة الانتشاء أحسها .. يدًا حانية تمسدني .. تلامس وجْنتي .. وأنا كالمستغرق في حضرها، تتراخى الزفرات، ويأخذني الخدر، يتراءى لى الوشاح الأبيض برائحة الأنثى وصهيلها الموقَّع ... بنحسر في حنان عن جيد يضوي يحاكي ضيَّه القمر .. وخطتْ ..

خطت برهافة، كفراشة .. ترمقني بالأنملة .. كأنها تدعوني ..

وأنهض، ثقيلًا أدبَّ على بساط من العُشب الأخضر ..

كانت ترنو، وتومئ، وتلوّح بالوشاح ..

بدت كحمامة تهدل.

كسحابة تسيل في الفضاء كأنها لُجيْن مسكوب.

ترتفع وتسمو ..

وأنا أخلع قدمي ..

تعلو في سموق .. وأنا أنفض ثقل الطين ن قدمي .

أراها تصَّاعد في السماء وتضوع رائحتها ..

وأنا ألهث .. علَّني أفوز وأرتقي.

***

ارتعاشة

- احتواء.
- الجسد.
- شمعة.
- القيد.
- رجفة.
- صورة.
- دمعة.
- تلامس.

احْتواء ..

لم يكن أمامي غيرُها ..

كانت تفيض حنانًا، وتنثره في دراعة ..

حين تراني همسُ في حنُوّ وتقول:

- اخلع نعلك وتعالَ

أبتهلُ داخلًا فأراها على فراشها تتّكئ ..

يلُوح ذراعها أبيض ورائقًا، تمدُّ يدها فأتقدَّم، أجلس على الحافَّة، وعيناي تنْهلان من ضيِّها، وتلاحقان عطرها الذي راح ينعقد كالنَّدى.

ألامس وجهها الوضيء فيلوح ثغرها منضودًا وتبوح شفتاها في خدر ..

- لا تتعجَّلْني.

أحس في ومْضتها أنني واحدها الذي اختارتْه ..

تمسِّدني، وتربتُ صدري، ويسرح ننُّها في عينيَّ ..

يصطخب الجسد بمائة، وأروح أجدّف في مائها الحار ..

تجذبني وتغمرني ..

.. حين تعود العيون إلى جفونها نكتشف أننا لا نزال على حالنا ..

مطروحة على فراشها وتتكئ ..

وعيناي تلاحقان عطرها ..

وتقتنص ضيَّها ..

ونضحك في سعادة ..

وكنّا لا نزال متباعديْن.

****

الجسَد

.. في البْهو المتسع خَطرتْ الطالبات ... متأججات ..

أشم روائحهن، وأرى نبضات القلوب في العيون المحدقة، وهنَّ ينثرن فيْضهُن.

أنكفئ على نفسي، وأخاف أن اقترب .. أنا الذي جئت من قرية نائية، تخطو حاملات الجرار فيها على عُشب القلوب .. وننتظر العطر في المواسم.

.. وها هنَّ .. خفرات، وكاشفات .. شعورهن تستعصى على التهذيب وتزدهي كلما اصطادها الضوء، أو اختطفها بريق العين.

***

.. تشع الوجوه فرحةً .. ويُفْسحن الخطو في جموح.

وكنتُ أتهيأ في حركتي الساكنة وأبدو كأنني لا أبالي .. ثم أتلصص، وأروح أتحرك نحو التجمعات .. ألتزم الصمت، وأستمع ..

ظل فمي مغلقًا كأن إبرة خاطتْه، واكتفيتُ برؤية الروائح الفاغمة وهن يتحركن، ويتمايلن، ويتدافعن ويثرثرن طويلًا.

.. مرّنت سمعي على اصطياد الهمسة حتى اكتفيت ..

تنفرج الشفاة فتتورد الخدود .. ويتلامسْن .. تتصايحن والأنامل الرقيقة تلامس الشفاه والخود.

***

.. وخطفتْ عينيَّ.

كانت تمشي، كغصن ريان مكتنز بالثمر .. قصدتْ (المقصف) .. وجلست في ركن هادئ ..

اقتربتُ بمقعدي حتى كدت أسمع وَجيب القلب.

قلتُ لعلها تحتاج إلى "وليف".

وقلتُ أفك الخيط عن فمي .. تكفيني كلمة .. أو نظرة ..

.. قبل أن أنهض .. رأيتُه يقتحمها ..

الولد المفتون بوسامته، وبغرَّته المنسدلة .. فتح قميصه ولاح .. شعر صدره نافرًا .. ضوى النور فمي عينيها وابتسمتْ.

مدّ يده، ومدت يدها .. ومضيا.

نترتُ جسدي كله .. وتلفّت خفية ..

.. ثم أطلقت ساقيّ للريح ..

***

شمعَة

.. هبطت السماء على الأرض تدكُّها.

تلمّس طريقه وسط الدرب الضيّق وتوقف أمام البيت الذي تم رصده ..

لعلّها الآن بداخله تنعم بنوم هادئ، ضغط بيده على جانبه الأيمن واطمأن، لن يستغرق الأمر وقتًا، استدار، وأرهف السمع، وأمعن النظر وقرّر ..

وقدمُه على عتبة الباب دوّي الرعد، أخذه الصوت فلَبد في ركن الباب وأدخلَ المفتاح في جيبه، تعجب من البرق الوامض الذي يقبض على عينيه، ازداد التصاقه بالباب وتساءل في رجفة .. ولماذا الليلة ؟ والليالي كثيرة ؟ فكّر أن يؤجل الأمر برّمته إلى ليلة أخرى تسكن فيها السماء وتهدأ ..

وارتبك .. أربكه ما سمع، فالتصق القدم بالأرض .. ما الذي يسمعه والليل يلّم رداءه ويرحل .. وصلتْه حركة تأتي وتروح، وتصادمات خفيفة تصل إليه، منْ جعلها تدور، وتصطدم.

كان خيط الضوء الساري من الشمعة لا يكشف طريقًا .. فظل لابدًا.

سمع حركة وراء الباب فتوجس، دار المفتاح، وانفتح الباب قليلًا، أطل وجْه ملْتفع بشال أسود، تفرس في ملامحه، كانت هادئة ورضيّة رغم تقدُّمُ العمر.

حين تلفتتْ لمحتْه، لم تُبدي انزعاجًا، لعله الذي رأته يتهيّأ، وتواجها.

قالتْ:– شعرت أن أحدًا يسْتجيرُ بي .. فقمتُ من منامي.

وحدقت فيه:– أهو أنت ؟ ..

أخبرها أنه اختبأ في تجويف الباب اتقاء المطر الذي يمكن أن يسقط.

أومأت برأسها وأغلقت الباب.

.. وكان وهو يسحب جسده من لِحاء الحائط .. يُهمهم ..

كيف لسماء تُرعد وهى تخلو من الغيم ؟

***

القَيْد ..

.. مدّ يده وناولني الشاي، لاحظتُ حزْنًا معلقًا بلون الليل وسؤالًا.

راقبت الزبّد الطافي في الكوب كي أتجنّب عيّنيه الرانيتين، حين رفعتُ رأسي ابتسم، كأنه ينتظر، قلت وأنا أدغم الكلام ..

إن الفرج قريب وأنه آن أن يدخل برجله اليمنى إلى (قيد) العمل، تنهّد وارتعش جلْد وجْهه، ولمحته يعْصر كفّه، قلت مازحًا .. الليل طويل وقد نحتاج كُوبًا آخر .. هبطت عليه عبْسة شدت جبينه، ومضى مهمومًا.

***

.. امتلأ الحجرة برائحة النوم .. كانت ممدَّدة على سرير ضيق، داويتُ أزير الباب، واقتربتُ، سمعتُ صوت نومها القلق، ونَفَسها المشروخ بصدرها المرتجف، مددتُ يدي ولامستُها، فمدتْ يدها وأمسكتْ بكفّي.ظللتُ مقْعيًا جوارها وكان الجسد لا ينطق بحركة، انطفأ التوقُّد وأضحى بعيدًا .. عجز الجسد واستسلم، كنتُ أريد أن أخبرها أن الابن سيضع يده أخيرًا في القيد .. لكنها كانت قد سكنت بقيدها، اعتصرني الأسى وأنا أمد أصابعي وأشد عليها الغطاء في هدوء.

***

.. أخذتْها الغفوة ولاح جسدها مهاجرًا، والألم يرزح فوقها.

خرجتُ أتحسس الخطى، وأنا حزين، بدا الليل في عينيَّ بعيدًا، وخبا الفرح الذي حركني وانطفأ، وتناثر الهمُّ منّي .. أمام جسد لا يقاوم وولدٍ غاب طويلًا ولم يأت بكوب آخر من الشاي.

***

رجْفة ..

.. مدت يدها وقطفت وردة، تشممتها، وسرى العبير فانتشتْ ..

مرت بأناملها على الأوراق .. وتلامسها .. شعرت بدفء يسري كمنْ يغمس كفه في قطيفة ناعمة.

.. حدقت في اللون الوردي وهامتْ ..

لم تنتبه لعصفور يتنقل من غصن لآخر .. ويدور يرفرف حولها، ويرسل رفرفته حتى تكاد تمرق إلى الأذن ..

تحركت شفتاها في تمتمة راعشة ..

– ألا يزال يذكرني ؟. أيكون نسيني ؟

هبتْ نسمة خفيفة فحلمت إلى أنْفها الدقيق عبق الوردة الساكنة ..

أفغمتها الرائحة فشهقتْ ..

حاكت الوردة شهقتها فالتمتْ الأوراق وحجبت قلْبها ..

شعرت بحنّو الوردة .. وهى تجلس تنتظر ..

وهاجسها خوف بدأ ينسرب ناغلًا ..

– أيمكن أن يتخلف ؟

مسحت أوراق الوردة فانحنتْ وارتختْ وبدتْ كأنها وسْني .. قربتها من أنفها، ومست شفتاها خميلتها فتفتحت واسترسلتْ .. كادت تمشطها لولا هلَّتُه ..

تفتحت مسامها، فردت يديها واستقبلته ..

وخطت نحوه ..

بدت مذهولة في خطوتها .. ونظرتها ترقد عليه، وتدفعها إليه .. وهرولت ..

... وكانت الوردة تستنيم على الأرض .. وتُلملم أوراقها ..

... وترتجف .. كأنها تبتسم ..

***

صُورَة ..

.. وقف مندهشًا ..

من يقف هناك قابضًا على ذراع السيدة ؟!

الوجه يعرفه، والكاب الرمادي يمتلك مثله، والنظارة ذاتُ الذراعين الأصفريْن، يُخَيَّل إليه أنه يلبس مثلها .. مد يده وخلعها .. تشابهتا كأنهما توأمان ..

.. أيخطو نحوهما ؟

وتمتم .. أيكون في مكانين في آن واحد ؟

وحدَّق في دهشة .. ما بالها تميل على ذراعه وتتكئ ؟ ..

.. أحس بثقل في ذراعه .. وبدا كأن أحدًا يضغط عليه.

قدّر أن يمضي إليه .. وأن يقتحم الحواجز ويفاجئهما ..

.. حين اقترب لم يجده .. أين اختفى ؟

ورآها ..

كانت المرأة تتجلى بهاءً، فخطا فاردًا ذراعيه .. حين اقترب تعجب .. هى منْ تركها في البيت تنتظر ..

.. وضم ذراعيه ..

كان الهواء ينسرب في صفير خافت ..

وهو .. مركوزٌ في الطوار

عيناه تحدقان في فراغ يتمدد ..

***

دَمْعة ..

.. دعا الله أن يمر يومه على خير ..

كان في الأربعين، يصل إلى عمله في الوقت المناسب، ما بين الثامنة والتاسعة صباحًا، عليه أن يتواجد اليوم مبكرًا .. ليحضر جلسة مناقشة خطة العمل .. واليوم موعد حضور مندوب الوزارة .. ويجب أن يراه ويسمع تصورُه فيما يجري ..

.. قبل أن يأخذه الدرج إلى الطريق .. قبَّل زوجته .. ودعتْ له ..

أخذه الميكروباص في دروب ملتوية .. تساءل عن السبب .. قيل له إن الطريق توقفت والمرور في أزمة .. رجل مهم يمر فعّطل الشوارع ..

.. ظلت عيناه على الطريق، والزحام، وساعة يده .. وصل في الحادية عشرة تمامًا .. كاد كل شيء ينتهي.

.. وغضب رئيسه غضبًا شديدًا.

كان يعتمد عليه، ذهنه اليقظ، وذاكرته القوية، وتصوُّراته المنضبطة، واستقرؤه لما يحدث.

.. ارتعش أمام غضبه وعينيه الوامضتين.

لم ينقذه التبرير .. وزحام المرور .. توقع جزاءً ما .. سيضره ..

كأنْ يترك موقعه في رسم الخطة .. وما يترتب عليه من مكافآت وحوافز ..

.. آلمه أن يتجاهل رئيسه ظروفه، مرض زوجته، وعلاجها عند طبيب النساء .. لعلَّها تصلح للإنجاب .. لم يقبل عذْره .. ونسى خدماته ..

أنا الذي خدمتُ وأخلصت .. من يصد الريح ؟ .. ويحمي البيت .. ؟

.. في عودته أسلم نفسه للميركوباص

وصل مع آذان المغرب.

تلقتْه قلقة .. لم تتعود منه هذا التأخير .. وأخذتْه إلى حجرته ..

خلعتْ عنه ثيابه، أرقدته على الفراش، بدا زائغ البصر .. أسرعت تُعد كوبًا من الليمون .. حين عادتْ لاحظت عليه سكونًا .. وعيناه تحدقان ويطل منهما رعبٌ يتجسَّد .. ودمعة عالقة مختزنة بين الرموش .. كَمُنت ولم تسقط ..

***

تلَامُس ..

.. رَنت إلى الرَّبْوة المعشبة ..

هامت مع الفراشات التي تتطاير في مساحة الضوء ..

ولجت بيدها داخل حقيبتها .. ولاح على الوجه كسل أرخى ملامحه .. النهار رتيب – كأيامها– والسرير يأخذ جسدها ولا يفلته .. لا أحد يسأل .. ولا زيارات تقوم بها ..

.. أخرجت تفاحة صفراء وراحت تقضمها ..

تَتيهُ بأسنانها القوية ولمعانها الوضيء ..

ثمة قطرات تسيل من فمها وتنحدر على العنق

نترت يدها بقوة .. ولامست الرقبة ومسحت .. قطرات التفاح .. فاجأتْه الحركة وخشى أن يكون أصابها سُوء ..

أدركت، كأنما عاودها الوعي وقالت:

– سرحْت قليلًا

.. كان يرمقها في دهشة

وكانت تحب أن تراه مندهشًا.

الأيام تمر عليها رتيبة .. لا جديد ..

لم تعد تعرف الضحك، أو يثيرها شيء .. والبنت تغيب عنها كثيرًا ..

.. وهو لا يمل النظر ولا يكف عن الدهشة ..

كادت تشهق وهي همس في تمتمة لا تَبِين ..

- يعجبني !

وراحت عينها تطوفان به .. العينان الهائمتان، الصلعة اللامعة، الحذاء العريض .. واليد الممدودة، والأصابع المفرودة.

- لو يلمسني

.. كتمت بسمتها، ولم تمانع ..

وضع كفه على يدها .. وراحت أصابعه تتلامس معها ..

***

تمتمات

- عيون.
- بذرة.
- الساعة.
- الوكر.
- موجة.
- غياب.

عُيون

كطائرين محلّقين كنا نقطع المشوار ..

ينفرد الجناح حين يرتخي الجناح، ويرتخي حين ينفرد.

كنْتِ – وقتها – تقدمين الأمن وتغدقين بهجة ربيعية، وكنتُ أمنحك حياة بلون الحب ..

تتبَدّى العين بلون العشب، أعرف أن الأخضر لونك المفضل وأنك تعشقينه حتى بتُّ أغار منه، وحين اكتشفتِ أن عينيَّ خضراوان، ضحكتِ، وتعجبتِ ..

ظللتِ وقتها تحدقين غير مصدقة أن عينًا تشابه عينيك ..

فاتك أن عينيّ ترزحان تحت صمت ثقيل .. فاقتربتُ لعلّكِ تقفين على سر الغموض، كل منْ رآك لحظتها تصور أنك منذورة لفهم الأسرار الدفينة ..

.. وكنْتِ مُدهشةً وأنت تمسكين بالوجه بين يديك.

وتفْردين بالهُدْب الطويل ملامحه المغضَّنة ..

وأشعر أنني أملك الدنيا وعيناك ترقدان في عيني، ومرارة البعاد تلوح مولية ..

لم يكن يغيب عنِّي تلك الرعشة التي تتسرب من الأطراف وتتجمع عند الجفن وبين الهدْب قطرة دمع ساخنة ..

.. يجذبك البريق ولمعة الدمع ورجفة العين في رنُوها وغيمها .. فتمدين إصبعك وتلتقطين دمعتي وتستبقينها في مقلتك ..

وأنت تُسْكنينني عينيك ..

كنتِ عمري الذي ينمو

وعُشبي الذي يخضر من لون عينيك

***

بذرة

وأنتِ تفتحين عينيك بعد جذوة الشوق، تجذبكِ شجرةُ الجازورينا، الضاربةُ في الأرض والشاهقةُ في الفضاء ..

تفردين أصابعك وتلمسين أرضكِ، وتسترجعين رجْفتكِ، حلمتُ لحظتها أن ألقى في الأرض البذرة، وكان حلمك أيضًا .. أن نزرع الأرض ونحفر أنهارها.

وظللتِ – زمنًا – تجاهدين أن تشطري بذرتك .. وكنتُ أقول لك وأنت تسعين حثيثًا في فعلتك .. الحياة لا تنهض إلا باكتمال بذرتك .. ونأيتِ ..

وجئتِ بعد غياب ..

شعرك المنسدلُ على الكتفين طوحتْه الرياح .. وعيناكِ الواسعتان الخضراوان جفّ عُشبهما .. والبحرُ الذي نزلتِ ماءه خرجتِ منه عارية ..

.. والشاطئ الذي لهوْنا في براحه ضاق وانكفأ ..

وراحت أوراق الجازورينا تتساقط وتفرش الأرض ورقًا محترقًا ..

.. لحظتها أيقنتُ أنني افتقدتُ عرشَكِ وعشبكِ الأخضر ..

***

السّاعة

تدق الساعة

ودقات الساعة فوق الحائط كخبط النواقيس ..

.. الزمن واقف، وأنت تسْتعصين .. فأصمت .. وتصمتين.

.. وكان صوتكِ حين ينساب كفجر جديد، يتصالب ظهري ويعتدل، وتتعالى الأغنيات وتغرد الطيور على الأغصان، وتتوالد التمتمات، والهمسات من شفتيك كزنابق الحدائق.

وأخاف على قلبي أن ينقر كهفه وينطلق ..

.. أخاف من عينيك وأسنانك البيضاء اللامعة.

حين تسجنينني بشكّكِ الغاضب، أحرص ألّا يزلّ لساني فأصمت .. وتصمتين، وتهربين، وأروح أطرح ألمي على الأشهاد.

.. كيف لزلّة اللسان أن تهدم الحبّ المرتجى ؟، وتأكل العين حروف الصدق وتلوذ بالكذب ؟ .. ويعجز اللسان عن التعبير .. ويترنح القلب وجْدًا وألَمًا !

.. وكنتُ أصدقكِ وأنت تقولين: أخاف عليكَ وكنتُ أقول لكِ: لا تطعني القلب بشككِ المفتعل.

وحل الجفاء محل الحب .. وتمدد الخوف، تعلقنا بأمل شحيح أن يعود للفجر ضؤوه، وللقلب نبضه، وللساعة همسها الرنان ..

لكنك التزمتِ صمتًا مريبًا ..

ورحْتِ تحركين شفتيك بتمتمات لا تُسمع ..

ولا تحرك حسًا.

***

الوكْر

.. جرى على الحب ما جرى على الأشياء ..

كنتُ أؤكد لكِ دومًا أن قلبي أبيض، وحبي أبيض، طاهرٌ،وناصعٌ .. وأنكِ آخر المطاف ..

أحسستُ بالانتماء إليكِ، تجسَّدتُ فيكِ فاحتويتِ.

فأنتِ موضع الخصب، ومرتع المنى .. لكنّكِ ..

وأنتِ تُطبقين جفنيكِ، أطلقتِ الهُدب، وأوصدْتِ العين، وأوقفتني لدى الباب.

وأغضبُ منكِ فأنا أدْري بانطباق الجفن لحظة الوصال ..

وكان صوتك يعلو عليّ ويصرخ

- كيف أطبق العين هروبًا منكَ ؟

وأردد على مسمعك معاتبًا .. أنت تسرعين بمحو الحب، واصطياد العذاب ..

وتلزمين صمتك الذي يمتد ..

.. وكان (ننُّ) عينكِ المحروس برمشكِ الطويل

يغرق في بحيرة الملل ..

وظللتِ تسْتنيمين له حتى تشعَّب، وبنى لكِ

وكرًا .. يلتقط الطيورَ المهاجرة.

***

مَوجَة

أُغلق جفني على مرآكَ، وأكحّل عينيّ بكَ ..

وأميت كلامي كي يحيا كلامكَ، وأرهف سمعي لكَ، لأتأملكَ وألمس برمشي صوتكَ الهامس ..

.. لم يرد على خاطري أني حين أطبق جفني سيهرب وجهكَ مني، فأنا أجيد الصيد، وأنت صيدي، فلماذا خاب سعيي ؟ ..

.. أنتَ تعلم أني سعيتُ إليكَ .. وكان داخلي يشتعل رغبةً فيك، وكنتَ تتيه بنفسكَ وتزهو بشَعْرك وأنت تنثر أزهارك بينهن.

.. أغار عليك .. ومنك .. وتظل غيرتي تقبض صدري حتى أراكَ .. أتعلل بالأعذار وأنت عُذري ..

.. لكنك ركبتَ سفينتَك، ومخرت بها لُجج الماء ..

تُرى .. هل تتوقع من ركاب سفينتكَ ألّا يتمايلوا، أو يجنحوا وسط هدير موجتكَ ؟.

.. حين أسلمتُ لكَ قلبي هدلتْ حولك العيون، قفزت القلوب ورقصتْ، ونمتْ في أرْضىَ الأزهار ..

لكن الخوف انسل ولاح نبْتًا صغيرًا ظل ينمو حتى تشعَّب ..

وكنتُ حين أقترب منكَ يُبعدني الخوف عنكَ .. حتى ابتعدتَ ..

.. أنت تعلم أني سعيتُ إليك

لكنك ركبت سفينتك،ة وانتأيتَ.

***

غياب

.. مالت الشمس نحو خدرها

أخذتْ معها غناءً مختلطًا لعصافير وحمامات

أُطلّ من الشرفة على البراح الخلفي للبناية.

تلتقط عيناي حركة الأجساد، وترنوان إلى شجرة باسقة، جيّاشة الأوراق، غنية بالأغصان وأوكار الطيور ..

.. قيدني المكان فاحتجبتُ .. وقلت:

– بعض الغياب مفيد

وصلتني رنّات متباعدة من جرس الباب .. لا أنتظر أحدًا.

ولم أعد أو أعدها هذه الأيام ..

الفهرس